

قناة الفجر الفضائية

سلسلة الإصدارات القرآنية لقناة الفجر الفضائية (٥)

هذا هو
القرآن العظيم

تأليف

محمد بن موسى الشريف



سِلسِلَةُ الإِصْدَاراتِ القُرآنيّةِ لِقناةِ الفجْرِ الفضَائيّة (٥)

هذا هو
القرآن العظيم

تأليف
محمّد بن موسى الشّريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فإن من أبرز أهداف الإصدارات القرآنية لقناة الفجر الفضائية هو تقريب علوم القرآن للعامة والخاصة، وقد وفقنا المولى عز وجل للتعاقد مع فضيلة الشيخ الدكتور محمد موسى الشريف لتسويق كتابه الماتع: «هذا هو القرآن العظيم» ضمن إصداراتنا القرآنية لنضيف للمكتبة الإسلامية سفراً نافعاً يقرب علوم القرآن ويعين على فهمه وتدبره والعمل به، وغاية ما نرجوه من مشاهدي ومتابعي القناة هو الإقبال على شراء الكتاب وتسويقه ليس لأنه سيدر دخلاً سخياً للقناة فحسب؛ بل لأنه حوى علماً نافعاً وتحقيقاً مبسطاً لمسائل لا يسع المسلم جهلها عن كتاب ربه.

نسأل الله عز وجل أن يضع للكتاب القبول وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء وأن لا يحرمنا وإياكم الأجر وأن يبارك في هذه السلسلة المباركة من إصداراتنا القرآنية وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

رئيس مجلس الإدارة

وجدي بن حمزة الغزاوي

chairman@fajrsat.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا كتاب شاملٌ لمباحثَ مهمةٍ عن كتاب الله تعالى العظيم: القرآن الكريم، ففيه أنــواع مــن علــوم القرآن، وفيه مباحث عن هداية القرآن وتأثيره في النفوس، وفيه بعض قصص مَن أسلموا بسبب القرآن الكريم، وفيه مبحث عن الإعجاز القرآني، وفيه واجبنا نحو القرآن العظيم، وفيه مباحث أخرى متنوعة.

هذا وقد أردت من كتابته أموراً، منها:

أولاً: أن أُسلك في سلسلة مَن كتب في علوم القرآن، وأُنظم في عِقْد من بيّن شيئاً من مباحث الفرقان، فإن هذا -والله- هو الشرف العظيم، والفخر الكبير، الذي أرجو به أن أكون من أهل الخيرية الذين شُــرِّفوا بقوله ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلّمه"(١).

ثانياً: كتابة شيء يكون كالمعجم، نافعٍ لكل من أراد أن يعرف شيئاً عن كتاب الله -تعــالى- بحيــث يستطيع المرء الوقوف على ما يريد سريعاً -إن شاء الله تعالى- وهذا ما لم أره قد صُنع من قبل على هذا الوجه.

ثالثاً: أطمع أن يكون هذا الكتاب جزءاً من المنهج الثقافي لطلاب حلقات تحفيظ القرآن، فمــا أحــوج هؤلاء لمعرفة أنواع من علوم القرآن وبعض مباحثه على وجه سهل ميسور.

هذا وإني قد أتيت ببعض مباحثَ من علوم القرآن وتركت أخرى، وذلك لأسباب منها:

أ. ليس موضوع هذا الكتاب هو علوم القرآن فقط، إنما علوم القرآن جزء من الكتاب.

ب. ولهذا فإن هذا الكتاب ليس كتاباً شاملاً لكل علوم القرآن إنما هو في أهمها -في ظني، والله أعلم- فلم يكن من غرضي الاستقصاء.

جـ. هنالك مباحث في علوم القرآن لا تصلح لعامة القراء بل للمتخصصين فقط، وقد أردت من وضع هذا الكتاب أن يكون نافعاً للمبتدي، وتذكرة للمنتهي، ويجد كل منهما فيه ما يمتعه ويفيده، إن شاء الله تعالى.

د. أردت أن أوجز -ما استطعت إلى الإيجاز سبيلاً- لعلمي أن أكثر أهل العصر لم يعودوا يسـتطيعون ولا يستسيغون قراءة المطولات، وهم عنها بمعزل، كما هو مشاهد معلوم.

إذن ليس هذا الكتاب شاملاً لكل المباحث والعلوم القرآنية، فمن لم يجد فيه ضالته فعليه بكتب علــوم القرآن فهي كثيرة جداً، وأنصحه إن كان من أهل العلم الشرعي بكتاب "الإتقان في علوم القــرآن" للإمــام السيوطي، وبكتاب "البرهان في علوم القرآن" للإمام الزركشي، فهما أجود ما صنفه الأقدمون في هذا العلم.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

وإن لم يكن من أهل العلم الشرعي فعليه بثلاثة كتب نافعة: "مناهل العرفان في علوم القــرآن" للشــيخ محمد ابن عبدالعظيم الزرقاني المصري، والشيخ الدكتور صبحي الصالح اللبناني وكتابــه "مباحــث في علــوم القرآن"، وكتاب الشيخ مناع القطان المصري ثم السعودي "مباحث في علوم القرآن" أيضاً، ففي كــل تلــك الكتب منفعة عظيمة وعلم جليل، والله تعالى أعلم.

هذا والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا الكتاب، وأن ينفعني به يوم الحساب، وأن يُعظم لي به الثواب، إنــه غفور رحيم تواب، إليه المرجع وإليه المآب.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com

www.altareekh.com

FACE BOOK: د . محمد موسى الشريف

المبحث الأول: تعريف القرآن العظيم

القرآن لغة:

في الأصل مصدر من قَرَأَ بمعنى الجمع، يقال: قرأ قرآناً، قال تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[1]، قال ابن عباس: إذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به.

وخُصّ بالكتاب المنزل على محمد ﷺ فصار له كالعَلَم.

وفي الاصطلاح:

هو كلام الله -تعالى- المنزل على رسول الله ﷺ، المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول عن النبي ﷺ نقلاً متواتراً.

أسماء القرآن:

وقد سمى الله تعالى القرآن بخمسة وخمسين اسماً: سماه كتاباً، ومبيناً، وقرآناً، وكريماً، وكلاماً، ونوراً، وهدى، ورحمة، وفرقاناً، وشفاء، وموعظة، وذكراً، ومباركاً، وعلياً، وحكمة ... الخ.

قال الفيروز آبادي رحمه الله تعالى:

"اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمي أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته، وسمو درجته.

وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته"[2].

الألفاظ ذات الصلة:

المصحف:

المصحف -بضم الميم وكسرها وفتحها-: ما جُعل جامعاً للصحف المكتوبة، وجمعه مصاحف.

وروى السيوطي أن أبا بكر ﷺ كان أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف[3].

---

(١) سورة القيامة: الآيتين ١٧-١٨.

(٢) "بصائر ذو التمييز": ٨٨/١ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ٨٤.

(٣) "الموسوعة الفقهية": ٣٠/٣٣.

المبحث الثاني: حُجِّية القرآن العظيم

القرآن هو الأصل الأول من أصول الشرع، وهو حجة من كل وجه لتوقف حجية غيره من الأصول عليه لثبوتها به، فإن الرسول ﷺ يخبر عن الله تعالى، وقول الرسول ﷺ إنما صار حجة بالكتاب بقوله تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[1]، وكذا الإجماع والقياس.[2]

وقد ظل القرآن العظيم هو المرجع للمسلمين في شؤونهم العامة والخاصة، يرجعون إليه ويحتكمون إليه، بل لا يتصورون التحاكم إلى غيره، أليس هو كلام الله -تعالى- العظيم، وشرعه المبين؟

أليس هو الكتاب الذي جعله الله -تعالى- خاتمة كتبه، والكلام الذي هو أحسن كلامه وأجمل نظامه؟

أليس هو الكتاب الذي جعله -عز وجلّ- صالحاً لكل زمان ومكان؟

أليس هو الكتاب الذي ضمنه -سبحانه- البرهان تلو البرهان؟

أليس هو الكتاب الذي فيه أحسن الشرائع وأجود الأحكام وأبعدها عن الحرَج والعسر؟

أليس هو الكتاب الذي ضمن سبحانه لمن اتبعه سعادة الدنيا والآخرة، ولمن أهمله شقاء الدنيا والآخرة؟

بلى والله، لذلك لم يَدُرْ في ذهن أحد من المسلمين أن يكون له حجة يحتج بها ومرجع يرجع إليه سوى هذا القرآن العظيم، حتى بُلينا في العصر الحديث -لكثرة ذنوبنا- باحتلال أجنبي نحّى عنا كتاب ربنا، وجاء بقوانين هي من أفكار البشر وترك كتاب رب البشر، لعمر الله إن هذا لشيء عجيب، ولذلك تأخرت البلاد الإسلامية التي نَحّت كتاب الله -تعالى- من كل وجه وصارت في ذيل قائمة الأمم، لكن الأمل معقود -بعد فضل الله تعالى ورحمته- بهذه الصحوة الإسلامية التي بدأت في ديار الإسلام منذ ثلث قرن، الأمل معقود بها أن تعيد الأمة إلى حكم القرآن وشريعة الرحمن حتى يعود للمسلمين ماضيهم التليد، وعزهم السليب، ومجدهم الضائع، وإلى الله عاقبة الأمور.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) "الموسوعة الفقهية": ٣١/٣٣.

المبحث الثالث: فضل القرآن العظيم

للقرآن العظيم فضائل كثيرة جداً لا حصر لها، وقد وردت فضائله في آيات كريمة وأحاديث مُنيفة كثيرة، أما الآيات ففي قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾[1] والذكر -هنا- هو الشرف.

ومثل هذه الآية قوله تعالى:

﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[2] أي فيه شرفكم وفخركم وارتفاعكم.

ومثلها قوله تعالى:

﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾[3] أي ذي القدر العظيم والشرف[4].

— ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾[5].

— ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾[6] والبركة كثرة الخير.

— ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[7].

— ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[8].

— ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾[9].

— ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[10].

أما الأحاديث الواردة في فضل القرآن فهي بحر زاخر، فمنها:

— عن أبي عبدالرحمن السُّلمي، عن عثمان بن عفان، أن النبي ﷺ قال:

---

(١) سورة الزخرف: آية ٤٤.

(٢) سورة الأنبياء: آية ١٠.

(٣) سورة ص: آية ١.

(٤) تفسير السعدي: ٢٦٩/٣، ٢٣٧/٤، ٢٧٩ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ٣٦٣.

(٥) سورة الإسراء: آية ٩.

(٦) سورة الأنعام: آية ٩٢.

(٧) سورة النحل: آية ٨٩.

(٨) سورة الأعراف: آية ٢٠٣.

(٩) سورة النساء: آية ١٧٤.

(١٠) سورة إبراهيم: آية ١.

"خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

قال أبو عبدالرحمن: فذلك الذي أقعدني هذا المقعد(١).

ـــ وجاء في ترجمة عبدالرحمن بن أبزى الخُزاعيّ: قال الذهبي:

هو مولى نافع بن عبدالحارث، كان نافع مولاه استنابه على مكة حين تلقى عمر بن الخطاب إلى عُسْفان(٢)، فقال له:

من استخلفت على أهل الوادي؟ يعني مكة.

قال: ابنَ أبزى.

قال: ومن ابن أبزى؟

قال: من موالينا.

قال: استخلفتَ على أهل الوادي مَوْلى؟!

قال: إنه عالمٌ بالفرائض، قارئٌ لكتاب الله.

قال: أما إن نبيَّكم ﷺ قال: "إن هذا القرآن يرفع الله به أقواماً، ويضع به آخرين".

ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: ابن أبزى ممن رَفعه الله بالقُرآن(٣).

ـــ وقال ﷺ:

"اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه".(٤)

ـــ وقال رسول الله ﷺ:

"يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها".(٥)

ـــ وقال ﷺ:

"يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب حَلِّه فيُلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده فيُلبس حُلة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه، فيقال: اقرأ وارق، ويُزاد بكل آية حسنة".(٦)

---

(١) انظر السير: ٢٦٢/٤.
والحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

(٢) بلدة بين مكة والمدينة، وهي معروفة اليوم.

(٣) انظر السير: ٢٠١/٣.
والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه كتاب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله: باب استحباب الترتيل في القراءة، والحديث صحيح، وهو خاص بالحافظ فقط، وانظر "عظمة القرآن الكريم": ٤٧٦.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب فضائل القرآن: باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر، والحديث حسن.

ـــ أخرج الترمذي والدَّارمي وغيرهما من طريق الحارث الأعور، عن علي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ستكون فتن"، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: "كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، هو الحبل المتين، وهو الذكر الحكيم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل، ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبّارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم".[١]

ـــ عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أهل القرآن هم أهل الله وخاصته".[٢]

ـــ وأخرج مسلم وغيره من حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: "أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خَلِفات[٣] عظام سمان"؟ قلنا: نعم، قال: "ثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاةٍ خير له من ثلاث خَلِفات سمان".

ـــ وأخرج مسلم من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: "خير الحديث كتاب الله".

ـــ وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال:

"الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البررة؛ والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران".

وأخرج الشيخان من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال:

"مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُترُجَّة طعمها طيّب وريحها طيّب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التَّمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها".

ـــ وقال ﷺ:

"إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه".[٤]

ـــ وقال ﷺ:

"إن هذا القرآن طَرَفُه بيد الله وطرفه بأيدكم فتمسكوا به فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبداً".[٥]

ـــ وقال ﷺ:

"كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض".[٦]

---

(١) قال ابن كثير وغيره في هذا الحديث إنه موقوف على عليّ رضي الله عنه ولا يصح رفعه، لكني أرى –والله أعلم– أن علياً لا يقدر على مثل هذا القول الذي عليه من أنوار النبوة ما عليه، والله أعلم.

(٢) أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم، والحديث صحيح.

(٣) الخَلِفات: النوق.

(٤) "فضائل القرآن" لابن كثير: ٢٠٢، وهو حديث حسن، انظر "عظمة القرآن الكريم": ٣٨٠.

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه: ٣٢٩/١ وغيره والحديث صحيح، انظر المصدر السابق: ٣٨١.

(٦) رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه غيره وهو صحيح، انظر المصدر السابق ٣٨٣.

ـــ وقال ﷺ:

"الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أَيْ ربِّ: منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيُشفَّعان".[1]

ـــ وقال ﷺ:

"القرآن شافع مشفع، وماحل مُصَدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار".[2]

ـــ وقال ﷺ:

"وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحَفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده".[3]

فضل سورة الفاتحة:

للبخاري من حديث أبي سعيد بن المعلّى أن رسول الله ﷺ قال:

"أعظم سورة في القرآن الحمد لله رب العالمين".

فضل سورة البقرة:

أخرج مسلم والترمذي، عن حديث النواس بن سمعان أن رسول الله ﷺ قال:

"يؤتَى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران"، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال، ما نسيتهن بعد، قال: "كأنهما غمامتان أو غَيايتان[4] أو ظُلّتان سوداوان بينهما شَرْق، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافٍّ[5] يحاجان عن صاحبهما".

ـــ وأخرج مسلم من حديث أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال:

"أعظم آية في كتاب الله آية الكرسي".

ـــ وأخرج الأئمة الستة، من حديث أبي مسعود: "من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتاه".

وقيل في معنى "كفتاه": كفتاه من الشياطين، وقيل غير ذلك.

فضل سورة الكهف:

أخرج مسلم من حديث أبي الدرداء: أن رسول الله ﷺ قال:

"مَنْ حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عُصِم من الدجال".

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ورواه غيره، وهو صحيح، انظر المصدر السابق ٣٨٤.

(٢) رواه ابن حبان وغيره والحديث صحيح، ومعنى ماحل مصدق أي خصم مجادِل مصدَّق، انظر المصدر السابق: ٣٨٥.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.

(٤) الغمامة والغياية: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه، سحابة أو غيرهما، وانظر "صحيح مسلم": ص ٥٥٣.

(٥) الشَرْق هو الضياء، والصواف: هي من الطيور لا تبسط أجنحتها.

فضل سورة الملك:

أخرج الأربعة وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

"في القرآن سورة ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له؛ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ المُلْكُ".

فضل سورة الإخلاص:

أخرج مسلم وغيره من حديث أبي هريرة: "قُلْ هو اللهُ أحد تَعْدِلُ ثلث القرآن"[1].

آثار عن السلف في فضل القرآن:

قال أبو سعيد الخدري:

عليك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في أهل السماء وذكرك في أهل الأرض، وعليك بالصمت إلا في حق، فإنك تغلب الشيطان[2].

وعن يونس بن جبير قال: شيَّعنا جندباً البجلي صاحب النبي ﷺ ورضي الله عنه فقلت له: أوصنا.

قال: أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن، فإنه نور بالليل المظلم، وهدى بالنهار، فاعملوا به على ما كان من جَهْد وفاقة، فإن عَرَض بلاء فقدِّم مالك دون دينك، فإن تجاوز البلاء فقدِّم مالك ونفسك دون دينك؛ فإن المَخروبَ من خَرُب دينه، والمسلوب من سُلبَ دينه، واعلم أنه لا فاقة بعد الجنة ولا غنى بعد النَار[3].

وقال ابن مسعود ﷺ:

"ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يُؤتى أدبه، وإن أدب الله القرآن".[4]

وقال ابن مسعود ﷺ:

"إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين".[5]

ـ وقال يعقوب الفَسوي: سمعت أحمد بن يونس، وذكروا له حديثاً أنكروه من حديث أبي بكر بن عياش، عن الأعمش فقال:

كان الأعمش يضرب هؤلاء ويشتمهم ويطردهم، وكان يأخذ بيد أبي بكر فيجلس معه في زاوية لحال القرآن.

ـ وقال الحسين بن فهم:

ما رأيت أنبلَ من خلف بن هشام، كان يبدأ بأهل القرآن، ثم يأذن لأصحاب الحديث[6].

---

(١) "الاتقان في علوم القرآن": ٤/١٠٤-١١٤.

(٢) انظر السير: ٣/١٦٨.

(٣) انظر السير: ٣/١٧٤.

(٤) رواه الدارمي في سننه: كتاب فضائل القرآن: باب فضل من قرأ القرآن، وانظر "عظمة القرآن الكريم": ٣٨٩.

(٥) رواه أبو عبيد في "فضائل القرآن" باب فضل علم القرآن والسعي في طلبه، والأثر صحيح، ومعنى أثيروا القرآن: أي فتشوا فيه وفكروا في معانيه، وانظر "عظمة القرآن": ٣٩٣.

(٦) رواه أبو عبيد في "فضائل القرآن" باب فضل علم القرآن والسعي في طلبه، والأثر صحيح، ومعنى أثيروا القرآن: أي فتشوا فيه وفكروا في معانيه، وانظر "عظمة القرآن": ٣٩٣.

المبحث الرابع: الأدب مع القرآن العظيم

هناك آداب في قراءة القرآن يحسن بالقارئ أن يأخذ بها، وإليكموها ملخصة من "الموسوعة الفقهية":

فمن ذلك أنه ينبغي للقارئ أن يستحضر في نفسه أنه يناجي الله -تعالى- ويقرأ على حال مَن يرى الله تعالى، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله -تعالى- يراه.

وينبغي إذا أراد القراءة أن ينظف فاه بالسواك وغيره.

ويستحب أن يقرأ القرآن وهو على طهارة، وإن قرأ مُحْدِثاً حدثاً أصغر دون مس المصحف جاز بإجماع المسلمين.

والجنب يحرم عليه قراءة القرآن عند عامة العلماء، من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة.

ويحرم على الحائض والنفساء قراءة القرآن عند جمهور الفقهاء.

وعند المالكية تجوز قراءة القرآن للحائض وإن كانت متلبسة بجنابة قبل الحيض، إلا أن ينقطع عنها دمه حقيقة أو حكماً كمستحاضة، فإنها لا تقرأ إن كانت متلبسة بجنابة.[1]

ويستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحب جماعة من العلماء أن تكون القراءة في المسجد، لكونه جامعاً للنظافة وشرف البقعة، ومحصلاً لفضيلة أخرى وهي الاعتكاف.

ويستحب للقارئ في غير الصلاة أن يستقبل القبلة، ويجلس متخشعاً بسكينة ووقار مطرقاً رأسَه، ويكون جلوسه وحده في تحسين أدبه وخضوعه كجلوسه بين يدي معلمه، فهذا هو الأكمل، ولو قرأ قائماً أو مضطجعاً أو في فراشه أو على غير ذلك من الأحوال جاز وله أجر، ولكن دون الأول.

وإذا أراد الشروع في القراءة يستعيذ فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا قال الجمهور من العلماء، قال الزركشي:

يستحب التعوذ قبل القراءة، فإن قطعها قَطْعَ تَرْكٍ وأراد العود جدد، وإن قطعها لعذر عازماً على العود كفاه التعوذ الأول ما لم يَطُلِ الفصل.

وينبغي أن يحافظ على قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة سوى سورة "براءة".

فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، فهو المقصود والمطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب.

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن، والتباكي لمن لا يقدر عليه، والحزن والخشوع، قال الله تعالى:

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾[2]، وقد قرأ ابن مسعود القرآن على النبي ﷺ وفي حديثه: "فإذا عيناه تذرفان".[3]

---

(١) يعني حتى تغتسل، فإذا اغتسلت من الجنابة جاز لها قراءة القرآن ولو كانت حائضاً، عند المالكية.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٠٩.

(٣) أخرجه الإمام البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة النساء. وأخرجه الإمام مسلم: كتاب صلاة المسافرين: باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة.

وطريقه في تحصيل البكاء أن يُحضر في قلبه الحزن بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر الخواص فليبك على فقد ذلك فإنه من أعظم المصائب.

ويسن الترتيل في قراءة القرآن، قال الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[1].

ومما يُعتنى به ويُتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين، فمن ذلك اجتناب الضحك واللغط، والحديث في خلال القراءة إلا كلاماً يضطر إليه، ومن ذلك العبث باليد وغيرها فإنه يناجي ربه سبحانه وتعالى، فلا يعبث بين يديه.

ومن ذلك النظر إلى ما يُلهي ويبدد الذهن.

آداب استماع القرآن:

استماع القرآن والتفهم لمعانيه من الآداب المحثوث عليها، ويكره التحدث بحضور القراءة.

قال الشيخ أبو محمد بن عبدالسلام: والاشتغال عن السماع بالتحدث بما لا يكون أفضل من الاستماع سوء أدب على الشرع، وهو يقتضي أنه لا بأس بالتحدث للمصلحة.

وصرح الحنفية بوجوب الاستماع للقراءة مطلقاً، أي في الصلاة وخارجها.

آداب حامل القرآن:

أن يكون على أكمل الأحوال وأكرم الشمائل.

وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالاً للقرآن.

وأن يكون متصوناً عن دنيء الاكتساب، شريف النفس، مترفعاً على الجبابرة والجفاة من أهل الدنيا، متواضعاً للصالحين وأهل الخير والمساكين.

وأن يكون متخشعاً ذا سكينة ووقار.

ومن أهم ما يؤمر به أن يحذر كل الحذر من اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها، فقد جاء عن عبدالرحمن بن شبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "اقرأوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه ولا تأكلوا به"[2].

وينبغي أن يحافظ على تلاوته ويكثر منها، قال الله تعالى مثنياً على من كان دأبه تلاوة آيات الله:

﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾[3].

وسماه ذكراً وتوعد المعرض عنه، قـال تعالى:

---

(١) سورة المزمل: الآية ٤.

(٢) حديث: "اقرأوا القرآن ولا تغلوا فيه ...".

أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٣/٤) وقال: رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن، منهم من منع أخذ الأجرة عليه، ومنهم من أجاز.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٣.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾.[١]

وينبغي على حافظ القرآن أن يداوم على مراجعته حتى لا ينساه، فقد قال رسول الله ﷺ:

"تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عُقُلها"[٢].

وقال ﷺ:

"بئسما لأحدهم يقول: نَسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي، استذكروا القرآن فلهو أشد تفصِّياً من صدور الرجال من النَعَم بعُقُلها"[٣].

آداب الناس كلهم مع القرآن:

أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنـزيهه وصيانته، وأجمعوا على أن من جحد منه حرفاً مما أجمع عليه، أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحد وهو عالم بذلك، فهو كافر.

ـ وأجمعوا على أن من استهزأ به عامداً مختاراً ذاكراً فهو كافر خارج عن ملة الإسلام.

ـ وينبغي ألا يُوضع المصحف على الأرض تعظيماً له، فمن صنع فقد أساء الأدب.

ـ وإذا اجتمع مصحف وكتب أخرى فإن المصحف يوضع فوق كل شيء، ثم يوضع التفسير، ثم حديث رسول الله ﷺ، ثم شروحه، ثم يقدم من الكتب بحسب ما فيها من آيات وأحاديث، والله أعلم.[٤]

---

(١) سورة طه: الآيات ١٢٤-١٢٦.

(٢) حديث "تعاهدوا هذا القرآن ..."

أخرجه البخاري (فتح الباري ٧٩/٩)، ومسلم (٥٤٥/١) من حديث أبي موسى الأشعري، واللفظ لمسلم.

(٣) حديث "بئس ما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت ..." أخرجه البخاري (فتح الباري ٧٩/٩)، ومسلم (٥٤٤/١) واللفظ لمسلم.

(٤) "الموسوعة الفقهية" ٣٨/٣٣، وأكثر النقل إنما هو عن الإمام النووي، رحمه الله تعالى.

المبحث الخامس: خصائص القرآن العظيم

للقرآن العظيم خصائص ليست لغيره في مجموعها وأكثر أفرادها، ولا يشاركه فيها كتاب، منها:

أ. التواتر:

لا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواتراً في أصله وأجزائه، وأما في محله ووضعه وترتيبه فعند المحققين من علماء أهل السنة كذلك، أي يجب أن يكون متواتراً.

ب. الكتابة في المصاحف:

القرآن هو ما نقل إلينا بين دَفّتي المصحف نقلاً متواتراً، وقُيد بالمصاحف؛ لأن الصحابة ﷺ بالغوا في نقله وتجريده عما سواه، حتى كرهوا التعاشير[(١)] والنقط كيلا يختلط بغيره، فنعلم أن المكتوب في المصحف المتفق عليه هو القرآن، وأن ما هو خارج عنه ليس منه؛ إذ يستحيل في العرف والعادة مع توافر الدواعي على حفظ القرآن أن يُهمل بعضه فلا ينقل، أو يُخلط به ما ليس منه.

جـ. الإعجاز:

من خصائص القرآن أنه كلام الله المعجز، المتحدى بإعجازه، والمراد بالإعجاز ارتقاؤه في البلاغة إلى حد خارج عن طوق البشر[(٢)]، قال الزركشي: ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله معجز، لأن العرب عجزوا عن معارضته، قال تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[(٣)]. أين التوثيق ؟

قال القاضي أبوبكر الباقلاني: ذهب عامة أصحابنا -وهو قول أبي الحسن الأشعري في كتبه- إلى أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها، قال: فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة وإن كانت كسورة الكوثر، فذلك معجز[(٤)]. / أين التوثيق

د. كونه بلغة العرب:

لقد أنزل الله القرآن بلغة العرب، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾[(٥)].

---

(١) التعاشير هو وضع علامة عند نهاية كل عشر آيات.

(٢) هذا وجه من وجوه الإعجاز.

(٣) سورة البقرة: الآيتين ٢٣-٢٤.

(٤) سيأتي تفصيل عن الإعجاز في مبحث مستقل، إن شاء الله تعالى.

(٥) سورة إبراهيم: الآية ٤.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور، رحمه الله تعالى:

"أراد الله -تعالى- أن يكون القرآن كتاباً مخاطباً به كل الأمم في جميع العصور، لذلك جعله بلغة هـي أفصح كلام بين لغات البشر وهي اللغة العربية؛ لأسباب يلوح لي منها أن تلك اللغة هي أوفر اللغات مـادة، وأقلها حروفاً، وأفصحها لهجة، وأكثرها تصرفاً في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظاً، وجعله جامعاً لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني في أقل ما يسمح به نظم تلك اللغة، فكـان قوام أساليبه جارياً على أسلوب الإيجاز، فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب".[1]

قال الزركشي:

لا خلاف أنه ليس في القرآن كلام مركب على غير أساليب العرب، وأن فيه أسماء أعلام لمن لسانه غير اللسان العربي، كإسرائيل، وجبرائيل، ونوح، ولوط، وإنما اختلفوا هل في القرآن ألفاظ -غير أعلام مفردة- من غير كلام العرب؟

فذهب القاضي إلى أنه لا يوجد ذلك فيه، وكذلك نقل عن أبي عبيدة، واحتج هذا الفريـق بقـول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾[2]، ولو كان فيه لغة العجم لم يكن عربياً محضاً، وآيات كثيرة في هذا المعنى، ولأن الله سبحانه تحداهم بالإتيان بسورة من مثله، ولا يتحداهم بما ليس من لسانهم ولا يحسنونه.

قال الإمام الشافعي: والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب.

وذهب قوم إلى أنه فيه لغة غير العرب، واحتجوا بأن "المشكاة" هندية، "والإستبرق" فارسية.

وقال مَن نصر هذا: اشتمال القرآن على كلمتين ونحوهما أعجمية لا يخرجه عن كوبه عربياً وعن إطلاق هذا الاسم عليه، ولا يمهد للعرب حجة؛ فإن الشعر الفارسي يسمى فارسياً وإن كان فيه آحاد كلمات عربية.

قال ابن قدامة: أين المؤشر

يمكن الجمع بين القولين بأن تكون هذه الكلمات أصلها بغير العربية ثم عربتها العـرب واسـتعملتها فصارت من لسانها بتعريبها واستعمالها لها، وإن كان أصلها أعجمياً. أين المؤشر

وقيل بأن هذا من باب اشتراك اللغات في بعض الألفاظ.

هـ. كونه محفوظاً بحفظ الله تعالى:

تكفل الله تعالى بحفظ كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[3]، قال القرطبي: المراد بالذكر القرآن، والمراد بالحفظ أن يُحفظ من أن يُزاد فيه أو ينقص منه، قال قتادة وثابت البناني: حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلاً أو تنقص منه حقاً، فتولى -سبحانه وتعالى- حفظه، فلم يزل

---

(١) "التحرير والتنوير": ١/٩٥-٩٦ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ٩٨.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٤.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩.

محفوظاً، وقال في غيره: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾[1]، فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا.[2]

ز. القرآن كتاب الله لكل زمان ومكان:

كانت الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن الكريم تخاطب قوماً مخصوصين في زمان مخصوص، أما القرآن العظيم فهو كتاب الله -تعالى- الذي يخاطب به الإنس والجن منذ نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[4].

ح. القرآن مُهيمن على الكتب السابقة:

خُص هذا القرآن العظيم بأنه مهيمن على الكتب التي نزلت قبله، ومعنى "مهيمن" أي شاهد وحاكم ورقيب على كل كتاب قبله، قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

"هو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها"[5].

ولهذا كله فقد جاء في القرآن الخبر بتحريف بعض الكتب السابقة وتبديلها، وبين ما أخفت تلك الكتب، ورد باطل ما فيها كالقول بالتثليث والصلب.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) "الموسوعة الفقهية" ٣٣/٣١-٣٣.

(٣) سورة يوسف: آية ١٠٤.

(٤) سورة الفرقان: آية ١.

(٥) تفسير ابن كثير: ١٥٣/٣ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ١٢٣.

المبحث السادس: هداية القرآن العظيم

نزل القرآن العظيم ليكون هداية للخلائق كلها في كل زمان ومكان، وهدايته تامة كاملة لا عوج فيها ولا نقص، قال الأستاذ سيد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1]:

"هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى الأعلى وهي مستقرة على الأرض ...

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تهمل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض، الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام الحال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان ...

فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن فهم متروكون لهوى الإنسان: الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر كله ...

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها، ولقد يفعل الفعل وهو شر، ويعجل به على نفسه وهو لا يدري، أو يدري ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زِمامه فأين هذا من هدي القرآن الثابت الهادئ الهادي، ألا إنهما طريقان مختلفان: شتان شتان هدى القرآن وهوى الإنسان"[2].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٢) "في ظلال القرآن": ٢٢١٥/٤-٢٢١٦.

المبحث السابع: تأثير القرآن العظيم في سامعيه

قد نظر في كتاب الله -تعالى- أقوام لا حصر لهم، من العرب والعجم، ومن الشرق والغرب، فنطقت ألسنتهم بما يجدون في قلوبهم وعقولهم من عظمة القرآن وروعته وجلاله، وسوف آتي هاهنا بكلام العرب وغيرهم ممن أثر فيهم القرآن تأثيراً بالغاً عندما سمعوه، وأكثرهم أسلموا وبقيت قلة قليلة على كفرها، فمن هؤلاء:

سيدا بني عبد الأشهل من الأوس سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير -رضي الله عنهما- فقد روى ابن إسحاق أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير -رضي الله عنهما- إلى دار بني عبد الأشهل فدخل به حائطاً -أي بستاناً- هناك ليقرأ مصعب القرآن على الناس، وكان سعد بن معاذ على دين آبائه، وهو ابن خالة أسعد بن زرارة الذي أسلم فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا، وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلمّا سمعا به، قال سعدُ بن معاذ لأسيد بن حضير:

لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارَيْنا ليسفها ضُعفاءنا، فازجرهما وانْهَهُما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمتَ كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدما.

قال: فأخذ أسيد بن حُضير حَرْبته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه قد جاءك فاصدُق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه.

قال: فوقف عليهما مُتشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمعَ، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟

قال: أنصفتَ، ثم ركز حَرْبته وجلس إليهما، فكلمه مُصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يُذكر عنهما: والله عرفنا في وجهه الإسلامَ قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل فتطهرّ وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ.

ثم أخذ حَرْبته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال:

أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد:

ما فعلت؟

قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليُخفروك[1].

قال: فقام سعد مُغضباً مبادراً، تخوفاً للذي ذُكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة:

يا أبا أمامة: أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره.

وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعْك لا يتخلّف عنك منهم اثنان.

قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عَزلنا عنك ما تكره؟

قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهُّله؛ ثم قال لهما: كيف تصْنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟

قال: تغتسل فتطهَّر وتُطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهّد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أُسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال:

يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة".[2]

ـــ النجاشي:

وهو ملك الحبشة، وقد أسلم ﷺ، وقد قال للصحابة ﷺ لما جاؤوا بلاده مهاجرين ما روته أم سلمة رضي الله عنها:

هل معكم شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله -أي الأناجيل-.

فقال له جعفر بن أبي طالب ﷺ: نعم، فقرأ عليهم صدراً من سورة كهيعص (مريم)، فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم.[3]

---

(١) والاخفار: نقض العهد والغدر.

(٢) "سيرة ابن هشام"، بدء إسلام الأنصار.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند والحديث صحيح.

ـ جبير بن مطعم ﷺ:

جاء إلى النبي ﷺ قبل إسلامه ليفتدي أُسارى بدر فمر على مسجد النبي ﷺ فسمعه يقرأ في صلاة المغرب بالطور، فلما بلغ قوله تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾[١] قال ﷺ: كاد قلبي أن يطير.[٢]

ـ الجن لما سمعوا القرآن العظيم قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾[٣].

ـ الفيلسوفة البريطانية هوني[٤]:

"لن أستطيع -مهما حاولت- أن أصف الأثر الذي تركه القرآن في قلبي، فلم أكد أنتهي من قراءة السورة الثالثة من القرآن حتى وجدتني ساجدة لخالق هذا الكون، كانت هذه أول صلاة لي في الإسلام".[٥]

وسيأتي في المبحث القادم إن شاء الله بعض القصص الأخرى المؤثرة.

---

(١) سورة الطور: الآيات ٣٥-٣٧.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب التفسير: باب سورة الطور.

(٣) سورة الجن: آية ١، ٢.

(٤) عائشة برجت هوني Ayesha Bridger Honey

نشأت في أسرة إنكليزية نصرانية، وشغفت بالفلسفة، ثم سافرت إلى كندا لإكمال دراستها، وهناك في الجامعة أتيح لها أن تتعرف على الإسلام، وأن تنتهي إليه، وقد عملت مدرسة في مدرسة عليا في نيجيريا.

(٥) "رجال ونساء أسلموا": ٥٠/٥ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ٣٤٦.

المبحث الثامن: من أسلم من المعاصرين بسبب القرآن العظيم

في هذا الفصل سآتي -إن شاء الله تعالى- على بعض قصص مَن أسلم بسبب اطلاعه على آيات أو سور من القرآن العظيم أو قراءة كله، وهي قصص مؤثرة، فيها عبرة وعظة، وحث على تدبر كتاب الله تعالى.

إبراهيم خليل فلوبوس

أستاذ اللاهوت، والذي كان يعمل راعياً للكنيسة الإنجيلية، وأستاذاً للعقائد واللاهوت بكلية اللاهوت بأسيوط حتى عام ١٩٥٣م، ثم سكرتيراً عاماً للإرسالية الألمانية السويسرية بأسوان، ومبشراً أي ينشر المسيحية بين المسلمين.

نشأته:

ولد في مدينة الإسكندرية في الثالث عشر من يناير عام ١٩١٩م في بيت نصراني، ودرس في مدارس الإرسالية الأمريكية، وتصادف وصوله مرحلة (الثقافة) المدرسية مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتعرض مدينة الإسكندرية لأهوال قصف الطائرات فاضطر للهجرة إلى أسيوط حيث استأنف في كليتها التعليم الداخلي وحصل على الدبلوم عام ١٩٤١م-١٩٤٢م، وسرعان ما تفتحت أمامه سبل العمل فالتحق بالقوات الأمريكية من عام ١٩٤٢م وحتى عام ١٩٤٤م، حيث كان للقوات الأمريكية وقتذاك معامل كيماوية لتحليل فلزات المعادن التي تشكل هياكل الطائرات التي تسقط من أجل معرفة تراكيبها ونوعياتها.

وبحكم ثقافته وتمكنه من اللغة الإنجليزية في كلية أسيوط، ولأن الأمريكان كانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بالخريجين ويستوعبونهم في شركاتهم، فقد أمضى في هذا العمل سنتين لكن أخبار الحرب والنكبات دفعته لأن ينظر إلى العالم نظرة أعمق قادته للإتجاه إلى الدعوة من خلال الكنيسة التي كانت ترصد رغباته وتؤجج توجهاته، فالتحق بكلية اللاهوت سنة ١٩٤٥م، وأمضى بها ثلاث سنين.

وكانت دراسته تعتمد على دراسة مقدمات العهد القديم والجديد، والتفاسير والشروحات وتاريخ الكنيسة، ثم تاريخ الحركة التنصيرية وعلاقتها بالمسلمين، ومن ثم دراسة القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والتركيز على الفرق التي خرجت عن الإسلام، أمثال الإسماعيلية، والعلوية، والقاديانية، والبهائية.

وكان الهدف من ذلك كله هو زيادة المعرفة والخبرات لمحاربة القرآن بالقرآن، والإسلام بالنقاط السوداء في تاريخ المسلمين!

ويقول عن نفسه: كنا نحاور الأزهريين وأبناء الإسلام بالقرآن لنفتنهم، فنستخدم الآيات مبتورة تبتعد عن سياق النص، ونخدم بهذه المغالطة أهدافنا، وهناك كتب لدينا في هذا الموضوع

أهمها كتاب "الهداية" من ٤ أجزاء، وكتاب "مصدر الإسلام"، إضافة إلى استعانتنا واستفادتنا من كتابات علماء الاستشراق!

وعلى هذا المنهج كانت رسالتي في الماجستير تحت عنوان "كيف ندمر الإسلام بالمسلمين؟".

قصة إسلامه:

يتحدث "إبراهيم خليل أحمد" عن قصة دخوله الإسلام فيقول: "في إحدى الأمسيات من عام ١٩٥٥م سمعت القرآن مذاعاً بالمذياع، وسمعت قوله تعالى:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[1]، فكانت هاتان الآيتان بمنزلة الشعلة التي أضاءت ذهني وقلبي للبحث عن الحقيقة.

في تلك الأمسية عكفت على قراءة القرآن حتى أشرقت شمس النهار، وكأن آيات القرآن نورٌ يتلألأ، وكأنني أعيش في هالة من النور، ثم قرأت مرة ثانية، فثالثة، فرابعة حتى وجدت قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

من هذه الآية قررت أن أقوم بدراسة متحررة للكتاب المقدس، وقررت الاستقالة من عملي كقسيس، وسكرتير عام للإرساليات الأمريكية.

ولما نفذت قراري تآمر عليَّ مجموعة أطباء، وأشاعوا أنني مختل العقل، فصبرت وصمدت بكل ثقة في الله، فسافرت إلى القاهرة حيث عملت بشركة للمبيعات، وفي أثناء عملي بها طلب مني مدير الشركة طبع تفسير جزء عمّ باللغة الإنجليزية، فتعهدت له بإنجاز هذا العمل، وكان يظنني مسلماً، وحمدت الله أنه لم يفطن لمسيحيتي، فكانت بالنسبة لي دراسة إسلامية متحررة من ثياب الدبلوماسية، حتى شرح الله صدري للإسلام، ووجدت أنه لابد من الاستقالة من العمل كخطوة لإعلان إسلامي.

وفعلاً قدمت استقالتي في عام ١٩٥٩م وأنشأت مكتباً تجارياً، ونجحت في عملي الجديد.

وفي ٢٥ ديسمبر عام ١٩٥٩م أرسلت برقية للإرسالية الأمريكية بمصر الجديدة بأنني آمنت بالله الواحد الأحد، وبمحمد نبياً ورسولاً، ثم قدمت طلباً إلى المحافظة للسير في الإجراءات الرسمية،

---

(١) سورة الجن: الآيتان ١-٢.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٥٧.

وتم تغيير اسمي من "إبراهيم خليل فلوبوس" إلى "إبراهيم خليل أحمد"، وتضمن القرار تغيير أسماء أولادي على النحو التالي: إسحاق إلى أسامة، وصموئيل إلى جمال، وماجدة إلى نجوى.

ثم يضيف قائلاً: إن الإيمان لابد أن ينبع من القلب أولاً، والواقع أن إيماني بالإسلام تسلل إلى قلبي خلال فترات طويلة، كنت دائماً أقرأ فيها القرآن الكريم، وأقرأ تاريخ الرسول الكريم، وأحاول أن أجد أساساً واحداً يمكن أن يقنعني أن محمداً -هذا الإنسان الأمي الفقير البسيط- يستطيع وحده أن يحدث كل تلك الثورة التي غيّرت تاريخ العالم ولا تزال.

وقد استوقفني كثيراً نظام التوحيد في الإسلام، وهو من أبرز معالم الإسلام:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[2].

ثم يختم كلامه بقوله: كم شعرت براحة نفسية عميقة وأنا أقرأ القرآن الكريم، فكنت أقف طويلاً عند قوله تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[3].

كذا الآية الكريمة:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[4].

لذلك كله اتخذت قراري بإشهار إسلامي، بل عليَّ القيام بالدعوة للدين الإسلامي الذي كنت من أشد أعدائه، يكفي أنني لم أدرس الإسلام في البداية إلا لكي أعرف كيف أطعنه وأحاربه، ولكن النتيجة كانت عكسية؛ فبدأ موقفي يهتز، وبدأت أشعر بصراع داخلي بيني وبين نفسي، واكتشفت أن ما كنت أبشر به، وأقوله للناس كله زيف وكذب"[5].

---

(١) سورة الشورى: آية ١١.

(٢) سورة الإخلاص: الآيتان ١-٢.

(٣) سورة الحشر: الآية ٢١.

(٤) سورة المائدة: الآيتان ٨٢-٨٣.

(٥) "عظماء أسلموا": ١٦-٢١.

الجراح الفرنسي موريس بوكاي

وُلِد موريس بوكاي لأبوين فرنسيين، وترعرع كأهله في الديانة النصرانية، ولما أنهى تعليمه الثانوي انتظم في دراسة الطب في جامعة فرنسا، فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب، وارتقى به الحال، حتى أصبح أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة، فكان من مهارته في الجراحة قصة عجيبة قلبت له حياته، وغيَّرت كيانه.

قصة إسلامه:

اشتُهر عن فرنسا أنها من أكثر الدول اهتمامًا بالآثار والتراث، وعندما تسلم الرئيس الفرنسي الاشتراكي الراحل (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام ١٩٨١م طلبت فرنسا من مصر في نهاية الثمانينيات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة.

فتمَّ نقل جثمان أشهر طاغوت عرفته مصر، وهناك - وعلى أرض المطار - اصطف الرئيس الفرنسي منحنيًا هو ووزراؤه وكبار المسئولين في البلد عند سلم الطائرة؛ ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك، وكأنه ما زال حيًّا!!

عندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون مصر على أرض فرنسا، حُملت مومياء الطاغوت بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسئول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية، هو البروفيسور موريس بوكاي.

كان المعالجون مهتمين في ترميم المومياء، بينما كان اهتمام رئيسهم موريس بوكاي عنهم مختلفًا للغاية، كان يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني، وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائية.

لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقاً، كما أن جثته استُخرِجت من البحر بعد غرقه فورًا، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه ، لكنَّ ثمَّة أمرًا غريبًا ما زال يحيره، وهو كيف بقيت هذه الجثة - دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة - أكثر سلامة من غيرها، رغم أنها استخرجت من البحر؟! كان موريس بوكاي يُعِدُّ تقريرًا نهائيّاً عمّا كان يعتقده اكتشافًا جديدًا في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة، حتى همس أحدهم في أذنه قائلاً: لا تتعجل؛ فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء.

ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر، واستغربه، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث، وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة، فزاد آخر اندهاشه بقوله: إن قرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصةً عن غرقه، وعن سلامة جثته بعد الغرق.

فازداد ذهولاً، وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلاً إلا في عام ١٨٩٨ ميلادية، أي قبل مائة عام تقريبًا، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟! وكيف يستقيم في العقل هذا، والبشرية جمعاء – وليس المسلمين فقط – لم يكونوا يعلمون شيئًا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط؟!

جلس موريس بوكاي ليلته محدقًا في جثمان فرعون، يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق، بينما كتاب المسيحيين "إنجيل متى ولوقا" يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتَّة، وأخذ يقول في نفسه: هل يُعقَل أن يكون هذا المحنَّط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى؟! وهل يعقل أن يعرف محمدهم ﷺ هذا قبل أكثر من ألف عام، وأنا للتوِّ أعرفه؟!

لم يستطع موريس أن ينام، وطلب أن يأتوا له بالتوراة، فأخذ يقرأ في سِفر الخروج من التوراة قوله: "فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر لم يبق منهم ولا واحد"، وبقي موريس بوكاي حائرًا.

حتى التوراة لم تتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه.

أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر، ولكن موريس لم يهنأ له قرار، ولم يهدأ له بال, منذ أن هزَّه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة؛ فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبي يوجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين.

وهناك كان أول حديث تحدَّثه معهم عمّا اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق، فقام أحدهم وفتح له المصحف، وأخذ يقرأ له قوله تعالى:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾(١).

لقد كان وَقْع الآية عليه شديدًا، ورُجَّت له نفسه رجة جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: "لقد دخلت الإسلام، وآمنت بهذا القرآن"(٢).

---

(١) سورة يونس: آية ٩٢.

(٢) "عظماء أسلموا":٩١-٩٤.

رجع (موريس بوكاي) إلى فرنسا بغير الوجه الذي ذهب به، وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثًا مع القرآن الكريم، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1].

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها الفرنسي موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هزَّ الدول الغربية قاطبة، ورجّ علماءها رجًّا، لقد كان عنوان الكتاب "القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" فماذا فعل هذا الكتاب؟!

من أول طبعة له نفد من جميع المكتبات! ثم أعيدت طباعته بمئات الآلاف بعد أن ترجم من لغته الأصلية الفرنسية إلى العربية والإنكليزية والإندونيسية والفارسية والتركية والألمانية، لينتشر بعدها في كل مكتبات الشرق والغرب، وصرت تجده بيد أي شاب مصري أو مغربي أو خليجي في أميركا.

ولقد حاول من طمس الله على قلوبهم وأبصارهم من علماء اليهود والنصارى أن يردوا على هذا الكتاب، فلم يكتبوا سوى تهريج جدلي ومحاولات يائسة يمليها عليهم وساوس الشيطان، وآخرهم الدكتور وليم كامبل في كتابه المسمى "القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم"، فلقد شرَّق وغرَّب ولم يستطع في النهاية أن يحرز شيئًا.

بل الأعجب من هذا أن بعض العلماء في الغرب بدأ يجهز ردًّا على الكتاب، فلما انغمس بقراءته أكثر وتمعَّن فيه زيادة أسلم ونطق بالشهادتين على الملأ!! فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

من أقواله:

يقول موريس بوكاي في مقدمة كتابه:

"لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدقة بموضوعات شديدة التنوع، ومطابقتها تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص قد كُتِب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا!!".

ويقول أيضًا:

"لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف -قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات- أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة، أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما

---

(١) سورة فصلت: آية ٤٢.

بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل، فإننا نجد نصّ إنجيل متى يناقض بشكل جليّ إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض.

ويقول الدكتور موريس بوكاي أيضًا:

"إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه نصوص القرآن لأول مرة هو ثراء الموضوعات العلمية المعالجة، وعلى حين نجد في التوراة – الحالية – أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ، ولو كان قائل القرآن إنسانًا فكيف يستطيع في القرن السابع أن يكتب حقائق لا تنتمي إلى عصره؟!.

وقد منحته الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٨٨م جائزتها في التاريخ على كتابه "القرآن الكريم والعلم العصري"[1].

القس إسحق هلال مسيحه

كان راعي كنيسة المثال المسيحي، ورئيساً فخرياً لجمعيات خلاص النفوس المصرية بإفريقيا وغرب آسيا، قال عن نفسه:

"مواليد: ١٩٥٣/٥/٣ -المنيا- جمهورية مصر العربية، وُلِدت في قرية البياضية مركز ملوي محافظة المنيا من والدين نصرانيين أرثوذكس، زرعا في نفوسنا -ونحن صغار- الحقد ضد الإسلام والمسلمين.

حين بدأت أدرس حياة الأنبياء بدأ الصراع الفكري في داخلي، وكانت أسئلتي تثير المشاكل في أوساط الطلبة مما جعل الباب (شنودة) الذي تولّى بعد وفاة البابا (كيرلس) يصدر قراراً بتعييني قسيساً قبل موعد التنصيب بعامين كاملين -لإغرائي وإسكاتي فقد كانوا يشعرون بمناصرتي للإسلام- مع أنه كان مقرراً ألا يتم التنصيب إلا بعد مرور ٩ سنوات من بداية الدراسة اللاهوتية.

ثم عُيِّنت رئيساً لكنيسة المثال المسيحي بسوهاج، ورئيساً فخرياً لجمعيات خلاص النفوس المصرية (وهي جمعية تنصيرية قوية جداً ولها جذور في كثير من البلدان العربية) وكان البابا يغدق علي الأموال حتى لا أعود لمناقشة مثل تلك الأفكار، لكني مع هذا كنت حريصاً على معرفة حقيقة الإسلام، ولم يخبُ النور الإسلامي الذي أنار قلبي فرحاً بمنصبي الجديد بل زاد، وبدأت علاقتي مع بعض المسلمين سراً، وبدأت أدرس وأقرأ عن الإسلام.

---

(١) "عظماء أسلموا": ٩١-٩٧ .

وطُلب مني إعداد رسالة الماجستير حول مقارنة الأديان، وأشرف على الرسالة أسقف البحث العلمي في مصر سنة ١٩٧٥، واستغرقت في إعدادها أربع سنوات، وكان المشرف يعترض على ما جاء في الرسالة حول صدق نبوة الرسول محمد ﷺ وأميته وتبشير المسيح بمجيئه.

وأخيراً تمّت مناقشة الرسالة في الكنيسة الإنكليكيّة بالقاهرة واستغرقت المناقشة تسع ساعات وتركزت حول قضية النبوة والنبي ﷺ علماً بأن الآيات صريحة في الإشارة إلى نبوّته وختم النبوة به، وفي النهاية صدر قرار البابا بسحب الرسالة مني وعدم الاعتراف بها.

أخذت أفكر في أمر الإسلام تفكيراً عميقاً حتى تكون هدايتي عن يقين تام، ولكن لم أكن أستطيع الحصول على الكتب الإسلامية فقد شدّد البابا الحراسة عليّ وعلى مكتبتي الخاصّة.

ولهدايتي قصة:

في اليوم السادس من الشهر الثامن من عام ١٩٧٨م كنت ذاهباً لإحياء مولد العذراء بالإسكندرية، أخذت قطار الساعة الثالثة وعشر دقائق الذي يتحرك من محطة أسيوط متجهاً إلى القاهرة، وبعد وصول القطار في حوالي الساعة التاسعة والنصف تقريباً ركبت الحافلة من محطة العتبة رقم ٦٤ المتجهة إلى العباسيّة، وأثناء ركوبي في الحافلة بملابسي الكهنوتية وصليب يزن ربع كيلو من الذهب الخالص، وعصاي الكرير صعد صبيّ في الحادية عشرة من عمره يبيع كتيبات صغيرة، فوزعها على كلّ الركّاب ما عدا أنا، وهنا صار في نفسي هاجس لم كل الركاب إلا أنا، فانتظرته حتى انتهى من التوزيع والجمع، فباع ما باع وجمع الباقي قلت له: "يا بنيّ لماذا أعطيت الجميع بالحافلة إلا أنا؟ فقال: "لا يا أبونا، أنت قسيس".

وهنا شعرت وكأنني لست أهلاً لحمل هذه الكتيّبات مع صغر حجمها: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[1].

ألححت عليه ليبيعني منهم فقال: "لا دي كتب إسلامية" ونزل، وبنزول هذا الصبّي من الحافلة شعرت وكأنني جوعان وفي هذه الكتب شبعي، وكأنني عطشان وفيها شربي، نزلت خلفه فجرى خائفاً مني، فنسيت من أنا، وجريت وراءه حتى حصلت على كتابين.

عندما وصلت إلى الكنيسة الكبرى بالعباسية (الكاتدرائية المرقصية) ودخلت إلى غرفة النوم المخصصة بالمدعوّين رسمياً كنت مرهقاً من السفر، ولكن عندما أخرجت أحد الكتابين وهو (جزء عم) وفتحته وقع بصري على سورة الإخلاص فأيقظت عقلي وهزت كياني، بدأت أرددها حتى حفظتها وكنت أجد في قراءتها راحة نفسية، واطمئناناً قلبياً، وسعادة روحية، وبينا أنا كذلك إذ

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

دخل عليّ أحد القساوسة وناداني: "أبونا إسحاق"، فخرجت وأنا أصيح في وجهه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دون شعور مني.

على كرسي الاعتراف:

بعد ذلك ذهبت إلى الإسكندرية لإحياء أسبوع مولد العذراء يوم الأحد أثناء صلاة القداس المعتاد، وفي فترة الراحة ذهبت إلى كرسي الاعتراف؛ لكي أسمع اعترافات الشعب الجاهل الذي يؤمن بأن القسيس بيده غفران الخطايا.

جاءتني امرأة تعض أصابع الندم، قالت: "إني انحرفت ثلاث مرات، وأنا أمام قداستك الآن أعترف لك رجاء أن تغفر لي، وأعاهدك ألا أعود لذلك أبداً"، ومن العادة المتبعة أن يقوم الكاهن برفع الصليب في وجه المعترف ويغفر له خطاياه.

وما كدت أرفع الصليب؛ لأغفر لها حتى وقع ذهني على العبارة القرآنية الجميلة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فعجز لساني عن النطق وبكيت بكاءً حاراً وقلت: "هذه جاءت لتنال غفران خطاياها مني! فمن يغفر لي خطاياي يوم الحساب والعقاب"؟.

هنا أدركت أن هناك كبيراً أكبر من كل كبير، إلهٌ واحدٌ لا معبود سواه، ذهبت على الفور للقاء الأسقف وقلت له: "أنا أغفر الخطايا لعامة الناس فمن يغفر لي خطاياي؟" فأجاب دون اكتراث: "البابا" فسألته: "ومن يغفر للبابا"، فانتفض جسمه ووقف صارخاً وقال: "أنت قسيس مجنون، والذي أمر بتنصيبك مجنون، حتّى وإن كان البابا، لأنّنا قلنا له لا تنصبه لئلا يفسد الشعب بإسلاميّاته وفكره المنحل".

بعد ذلك صدر قرار البابا بحبسي في دير (ماري مينا) بوادي النطرون.

كبير الرهبان يصلّي:

أخذوني معصوب العينين وهناك استقبلني الرهبان استقبالاً عجيباً؛ كادوا لي فيه صنوف العذاب علماً بأنني حتى تلك اللحظة لم أسلم، كل منهم يحمل عصا يضربني بها وهو يقول: "هذا ما يُصنع ببائع دينه وكنيسته"، استعملوا معي كل أساليب التعذيب الذي لا تزال آثاره موجودةً على جسدي، وهي خير شاهدٍ على صحّة كلامي، حتّى أنّه وصلت بهم أخلاقهم اللاإنسانية أنهم كانوا يدخلون عصا المقشّة في دبري يومياً سبع مرّات في مواقيت صلاة الرهبان لمدة سبعة وتسعين يوماً، وأمروني بأن أرعى الخنازير.

وبعد ثلاثة أشهر أخذوني إلى كبير الرهبان لتأديبي دينياً، وتقدم النصيحة لي فقال: "يا بنيّ ... إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، اصبر واحتسب، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب".

قلت في نفسي: ليس هذا الكلام من الكتاب المقدس ولا من أقوال القديسين، وما زلت في ذهولي بسبب هذا الكلام حتى رأيته يزيدني ذهولاً على ذهول بقوله: "يا بنيّ، نصيحتي لك السر والكتمان إلى أن يعلن الحق مهما طال الزمان" تُرى ماذا يعني بهذا الكلام وهو كبير الرهبان؟ ولم يطل بي الوقت حتى فهمت تفسير هذا الكلام المحير، فقد دخلت عليه ذات صباح لأوقظه فتأخر في فتح الباب، فدفعته ودخلت وكانت المفاجأة الكبرى التي كانت نوراً لهدايتي لهذا الدين الحق دين الوحدانية عندما شاهدت رجلاً كبيراً في السن ذا لحية بيضاء وكان في عامه الخامس والستّين وإذا به قائماً يصلي صلاة المسلمين (صلاة الفجر).

تسمرتُ في مكاني أمام هذا المشهد الذي أراه، ولكنّي انتبهت بسرعة عندما خشيت أن يراه أحد الرهبان فأغلقت الباب، جاءني بعد ذلك وهو يقول: "يا بني استر عليّ ربنا يستر عليك، أنا منذ ٢٣ سنة على هذا الحال غذائي القرآن، وأنيس وحدتي توحيد الرحمن، ومؤنس وحشتي عبادة الواحد القهار، الحق أحق أن يتبع يا بني".

بعد أيّام صدر أمر البابا برجوعي لكنيستي بعد نقلي من سوهاج إلى أسيوط لكن الأشياء التي حدثت مع سورة الإخلاص، وكرسي الاعتراف، والراهب المتمسك بإسلامه جعلت في نفسي أثراً كبيراً، لكن ماذا أفعل وأنا محاصر من الأهل والأقارب، وممنوع من الخروج من الكنيسة بأمر (شنودة)؟

رحلة تنصيريّة:

بعد مرور عام جاءني خطاب -والمودع بالملف الخاص بإشهار إسلامي بمديرية أمن الشرقية- ج. م. ع يأمرني فيه بالذهاب كرئيس للّجنة المغادرة إلى السودان في رحلة تنصيرية، فذهبنا إلى السودان في الأول من سبتمبر ١٩٧٩م، وجلسنا به ثلاثة شهور، وحسب التعليمات البابويّة بأن كل من تقوم اللجنة بتنصيره يسلّم مبلغ ٣٥ ألف جنيه مصري، بخلاف المساعدات العينية، فكانت حصيلة الذين غررت بهم اللجنة تحت ضغط الحاجة والحرمان خمسة وثلاثين سودانيّاً من منطقة واو في جنوب السودان.

وبعد أن سلّمتهم أموال المنحة البابوية اتّصلت بالبابا من مطرانية أم درمان فقال: "خذوهم ليروا المقدسات المسيحيّة بمصر الأديرة"، وتم خروجهم من السودان على أساس عمّال بعقود للعمل بالأديرة لرعي الإبل والغنم والخنازير، وتم عمل عقود صوريّة، حتى تتمكن لجنة التنصير من إخراجهم إلى مصر.

بعد نهاية الرحلة وأثناء رجوعنا بالباخرة (مارينا) في النيل قمت أتفقد المتنصرين الجدد، وعندما فتحت باب الكابينة ١٤ بالمفتاح الخاص بالطاقم العامل على الباخرة، فوجئت بأن المتنصر الجديد عبد المسيح (وكان اسمه محمد آدم) يصلّي صلاة المسلمين.

تحدثت إليه فوجدته متمسّكاً بعقيدته الإسلامية فلم يُغْرِه المال، ولم يؤثّر فيه بريق الدنيا الزائل، خرجت من عنده وبعد حوالي الساعة أرسلت له أحد المنصّرين فحضر لي بالجناح رقم ٣

وبعد أن خرج المنصّر قلت له: "يا عبد المسيح، لماذا تصلّي صلاة المسلمين بعد تنصّرك؟!" فقال: "بعت لكم جسدي بأموالكم، أما قلبي وروحي وعقلي فملك الله الواحد القهار، لا أبيعهم بكنوز الدنيا، وأنا أشهد أمامك بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".

بعد هذه الأحداث التي أنارت لي طريق الإيمان، وهدتني لأعتنق الدين الإسلامي، وجدت صعوبات كثيرة في إشهار إسلامي، نظراً لأنني قس كبير ورئيس لجنة التنصير في أفريقيا، وقد حاولوا منع ذلك بكل الطرق لأنه فضيحة كبيرة لهم.

ذهبت لأكثر من مديرية أمن لأشهر إسلامي، وخوفاً على الوحدة الوطنية أحضرت لي مديرية الشرقية فريقاً من القساوسة والمطارنة للجلوس معي، وهو المتبع بمصر لكل من يريد اعتناق الإسلام.

هددتني اللجنة المكلفة من ٤ قساوسة و٣ مطارنة بأنها ستأخذ كل أموالي وممتلكاتي المنقولة والمحمولة والموجودة في البنك الأهلي المصري فرع سوهاج وأسيوط والتي كانت تقدر بحوالي ٤ مليون جنيه مصري وثلاثة محلات ذهب، وورشة لتصنيع الذهب بحارة اليهود، وعمارة مكوّنة من أحد عشر طابقاً رقم ٤٩٩ شارع بور سعيد بالقاهرة فتنازلت لهم عنها كلّها، فلا شيء يعدل لحظة الندم التي شعرت بها وأنا على كرسي الاعتراف، بعدها كادت لي الكنيسة العداء، وأهدرت دمي فتعرضت لثلاث محاولات اغتيال من أخي وأولاد عمي، فقاما بإطلاق النار علي في القاهرة وأصابوني في كليتي اليسرى، والتي تم استئصالها في ١٩٨٧/١/٧م في مستشفى القصر العيني، والحادث قيّد بالمحضر رقم ١٩٨٦/١٧٦٢ بقسم قصر النيل مديرية أمن القاهرة بتاريخ ١٩٨٦/١١/١١م.

أصبحت بكلية واحدة، وهي اليمنى، ويوجد بها ضيق الحالب بعد التضخم الذي حصل لها بقدرة الخالق، الذي جعلها عوضاً عن كليتين، ولكن للظروف الصعبة التي أمر بها بعد أن جرّدتني الكنيسة من كل شيء؛ والتقارير الطبية التي تفيد احتياجي لعملية تجميل لحوض الكلية وتوسيع للحالب، ولأني لا أملك تكاليفها الكبيرة، أجريت لي أكثر من خمس عشرة عملية جراحيّة من بينها البروستات، و لم تنجح واحدة منها لأنها ليست العملية المطلوب إجراؤها حسب التقارير التي أحملها، ولما علم أبواي بإسلامي أقدما على الانتحار، فأحرقا نفسيهما، والله المستعان.

الحمد لله على نعمة الإسلام، نعمة كبيرة لا تدانيها نعمة؛ لأنه لم يعد على الأرض من يعبد الله وحده إلا المسلمون.

ولقد مررت برحلة طويلة قاربت ٤٠ عاماً إلى أن هداني الله، وسوف أصف لكم مراحل هذه الرحلة من عمري مرحلة مرحلة.

مرحلة الطفولة: زرع ثمار سوداء.

كان أبي واعظاً في الإسكندرية في جمعية أصدقاء الكتاب المقدس، وكانت مهنته التبشير في القرى المحيطة، والمناطق الفقيرة، لمحاولة جذب فقراء المسلمين إلى المسيحية.

وأصر أبي أن أنضم إلى الشمامسة منذ أن كان عمري ست سنوات، وأن أنتظم في دروس مدارس الأحد، وهناك يزرعون بذور الحقد السوداء في عقول الأطفال ومنها:

١. المسلمون اغتصبوا مصر من المسيحيين وعذبوا المسيحيين.
٢. المسلم أشد كفراً من البوذي وعابد البقر.
٣. القرآن ليس كلام الله ولكن محمداً اخترعه.
٤. المسلمون يضطهدون النصارى لكي يتركوا مصر ويهاجروا، وغير ذلك من البذور التي تزرع الحقد الأسود ضد المسلمين في قلوب الأطفال.

وفي هذه الفترة الحرجة كان أبي يتكلم معنا سراً عن انحراف الكنائس عن المسيحية الحقيقية التي تحرم الصور والتماثيل، والسجود للبطرك والاعتراف للقساوسة.

مرحلة الشباب: نضوج ثمار الحقد الأسود:

أصبحت أستاذاً في مدارس الأحد ومعلماً للشمامسة وكان عمري ١٨ سنة، وكان علي أن أحضر دروس الوعظ بالكنيسة، والزيارة الدورية للأديرة (خاصة في الصيف) حيث يتم استدعاء متخصصين في مهاجمة الإسلام والنقد اللاذع للقرآن ومحمد ﷺ.

وما يقال في هذه الاجتماعات:

- القرآن مليء بالمتناقضات، ثم يذكرون نصف آية مثل: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1].
- القرآن مليء بالألفاظ الجنسية ويفسرون كلمة (نكاح) على أنها الزنا أو اللواط.

(١) سورة النساء: آية ٤٣.

- يقولون: إن النبي محمد ﷺ قد أخذ تعاليم النصرانية من (بحيرا) الراهب ثم حورها واخترع بها دين الإسلام ثم قتل بحيرا حتى لا يفتضح أمره.

ومن هذا الاستهزاء بالقرآن الكريم ومحمد ﷺ الكثير والكثير.

أسئلة محيرة:

الشباب في هذه الفترة وأنا منهم نسأل القساوسة أسئلة كانت تحيرنا: شاب مسيحي يسأل:

ما رأيك بمحمد ﷺ ؟

القسيس يجاوب: هو إنسان عبقري وذكي.

س: هناك الكثير من العباقرة مثل (أفلاطون، سقراط، حامورابي) ولكن لم نجد لهم أتباعاً وديناً ينتشر بهذه السرعة إلى يومنا هذا؟ لماذا؟

ج: يحتار القسيس في الإجابة.

شاب آخر يسأل:

س: ما رأيك في القرآن؟

ج: كتاب يحتوي على قصص لأنبياء ويحض الناس على الفضائل ولكنه مليء بالأخطاء.

س: لماذا تخافون أن نقرأه، وتكفرون من يلمسه أو يقرؤه؟

ج: يصر القسيس أن من يقرؤه كافر دون توضيح السبب!!

يسأل آخر:

س: إذا كان محمد ﷺ كاذباً فلماذا تركه الله ينشر دعوته ٢٣ سنة؟ بل وما زال دينه ينتشر إلى الآن؟ مع أنه مكتوب في كتاب موسى (كتاب ارميا) إن الله وعد بإهلاك كل إنسان يدعي النبوة هو وأسرته في خلال عام؟

ج: يجيب القسيس: لعل الله يريد أن يختبر المسيحيين به.

مواقف محيرة:

- في عام ١٩٧١ أصدر البطرك (شنودة) قراراً بحرمان الراهب روفائيل (راهب دير مينا) من الصلاة لأنه لم يذكر اسمه في الصلاة، وقد حاول اقناعه الراهب (صموائيل) بالصلاة فإنه يصلي لله، وليس للبطرك، ولكنه خاف أن يحرمه البطرك من الجنة أيضاً!!

وتساءل الراهب صموائيل هل يجرؤ شيخ الأزهر أن يحرم مسلم من الصلاة؟ مستحيل.

- أشد ما كان يحيرني هو معرفتي بتكفير كل طائفة مسيحية للأخرى، فسألت القس (ميتاس - روفائيل) فأكد هذا، وأن هذا التكفير نافذ في الأرض والسماء، فسألته متعجباً: معنى هذا أننا كفار لتكفير بابا روما لنا؟ أجاب: للأسف نعم.

سألته: وباقي الطوائف كفار بسبب تكفير بطرك الإسكندرية لهم؟

أجاب: للأسف نعم. سألته: وما موقفنا إذاً يوم القيامة؟

أجاب: الله يرحمنا!

بداية الاتجاه نحو الإسلام:

- وعندما دخلت الكنيسة ووجدت صورة المسيح، وتمثاله يعلو هيكلها، فسألت نفسي: كيف يكون هذا الضعيف المهان الذي استهزئ وُعذّب ربّاً وإلهاً؟؟
- المفروض أن أعبد رب هذا الضعيف الهارب من بطش اليهود، وتعجبت حين علمت أن التوراة قد لعنت الصليب والمصلوب عليه، وأنه نجس وينجس الأرض التي يصلب عليها[1]!!
- وفي عام ١٩٨١: كنت كثير الجدل مع جاري المسلم (أحمد محمد الدمرداش حجازي)، وذات يوم كلمني عن العدل في الإسلام (في الميراث، في الطلاق، القصاص) ثم سألني هل عندكم مثل ذلك؟ أجبت لا، لا يوجد.
- وبدأت أسأل نفسي: كيف أتى رجل واحد بكل هذه التشريعات المحكمة والكاملة في العبادات والمعاملات بدون اختلافات؟ وكيف عجزت مليارات اليهود والنصارى عن إثبات أنه مخترع؟
- من عام ١٩٨٢ وحتى ١٩٩٠: وكنت طبيباً في مستشفى (صدر كوم الشقافة)، وكان الدكتور محمد الشاطي دائم التحدث مع الزملاء عن أحاديث محمد ﷺ وكنت في بداية الأمر أشعر بنار الغيرة، ولكن بعد مرور الوقت أحببت سماع هذه الأحاديث (قليلة الكلام كثيرة المعاني جميلة الألفاظ والسياق) وشعرت وقتها أن هذا الرجل نبي عظيم.

هل كان أبي مسلماً؟

من العوامل الخفية التي أثرت على هدايتي هي الصدمات التي كنت أكتشفها في أبي ومنها:

١. هجر الكنائس والوعظ والجمعيات التبشيرية تماماً.

٢. كان يرفض تقبيل أيدي الكهنة، وهذا أمر عظيم عند النصارى.

٣. كان لا يؤمن بالجسد والدم (الخبز والخمر) أي لا يؤمن بتجسيد الإله.

٤. بدلاً من نزوله صباح يوم الجمعة للصلاة أصبح ينام ثم يغتسل وينزل وقت الظهر.

٥. ينتحل الأعذار للنزول وقت العصر والعودة متأخراً وقت العشاء.

٦. أصبح يرفض ذهاب البنات للكوافير.

٧. ألفاظ جديدة أصبح يقولها (أعوذ بالله من الشيطان) (لا حول ولا قوة إلا بالله)..

٨. وبعد موت أبي ١٩٨٨ وجدت بالإنجيل الخاص به قصاصات ورق صغيرة يوضح فيها أخطاء موجودة بالأناجيل وتصحيحها.

---

(١) سفر التثنية: ٢١، ٢٢-٢٣.

٩. وعثرت على إنجيل جدي (والد أبي) طبعة ١٩٣٠، وفيها توضيح كامل عن التغيرات التي أحدثها النصارى فيه، منها تحويل كلمة (يا معلم) و(يا سيد) إلى (يا رب)! ليوهموا القارئ أن عبادة المسيح كانت منذ ولادته.

الطريق إلى المسجد:

وبالقرب من عيادتي يوجد مسجد (هدى الإسلام) اقتربت منه وأخذت أنظر بداخله فوجدته لا يشبه الكنيسة مطلقاً (لا مقاعد -لا رسومات- لا ثريات ضخمة -لا سجاد فخم- لا أدوات موسيقى وإيقاع، لا غناء، لا تصفيق)، ووجدت أن العبادة في هذه المساجد هي الركوع والسجود لله فقط، لا فرق بين غني وفقير، يقفون جميعاً في صفوف منتظمة، وقارنت بين ذلك وعكسه الذي يحدث في الكنائس فكانت المقارنة دائماً لصالح المساجد.

في رحاب القرآن:

وددت أن أقرأ القرآن واشتريت مصحفاً، وتذكرت أن صديقي أحمد الدمرداش قال: إن القرآن ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾[1]، واغتسلت ولم أجد غير ماء بارد وقتها، ثم قرأت القرآن وكنت أخشى أن أجد فيه اختلافات -بعد ما ضاعت ثقتي في التوراة والإنجيل- وقرأت القرآن في يومين ولكني لم أجد ما كانوا يعلمونا إياه في الكنيسة عن القرآن.

الأعجب من هذا أن من يكلم محمداً ﷺ يخبره أنه سوف يموت! من يجرؤ أن يتكلم هكذا إلا الله؟؟!! ودعوت الله أن يهديني ويرشدني.

الرؤيا:

وذات يوم غلبني النوم، فوضعت المصحف بجواري، وقرب الفجر رأيت نوراً في جدار الحجرة، وظهر رجل وجهه مضيء، اقترب مني وأشار إلى المصحف، فمددت يدي لأسلم عليه لكنه اختفى، ووقع في قلبي أن هذا الرجل هو النبي محمد ﷺ يشير إلى أن القرآن هو طريق النور والهداية.

أخيراً أسلمت وجهي لله:

وسألت أحد المحامين فدلني على أن أتوجه لمديرية الأمن -قسم الشؤون الدينية- ولم أنم تلك الليلة وراودني الشيطان كثيراً كيف تترك دين آبائك بهذه السهولة؟

وخرجت في السادسة صباحاً ودخلت كنيسة (جرجس وأنطونيوس) وكانت الصلاة قائمة، وكانت الصالة مليئة بالصور والتماثيل للمسيح ومريم والحواريين وآخرين إلى البطرك السابق (كيرلس) فكلمتهم: (لو أنكم على حق وتفعلون المعجزات كما كانوا يعلمونا فافعلوا أي شيء... أي علامة أو إشارة لأعلم إنني أسير في الطريق الخطأ) وبالطبع لا إجابة.

وبكيت كثيراً على عمر كبير ضاع في عبادة هذه الصور والتماثيل.

---

(١) سورة الواقعة: آية ٧٩.

وبعد البكاء شعرت أنني تطهرت من الوثنية، وأنني أسير في الطريق الصحيح طريق عبادة الله حقاً.

وذهبت إلى المديرية، وبدأت رحلة طويلة شاقة مع الروتين، ومع معاناة مع البيروقراطية وظنون الناس، وبعد عشرة شهور تم إشهار إسلامي من الشهر العقاري في أغسطس ١٩٩٢.

اللهم أحيني على الإسلام، وتوفني على الإيمان، اللهم احفظ ذريتي من بعدي خاشعين، عابدين، يخافون معصيتك ويتقربون بطاعتك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.(١)

عالم الرياضيات والمنصّر السابق الدكتور الكندي جاري ميلر

أستاذ للرياضيات بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن، اسمه جاري ميلر.

كندي الأصل، كان قسيساً يدعو للنصرانية في كندا وبعد أن منَّ الله عليه بالإسلام وقف يخطب في الناس قائلاً:

"أيها المسلمون، لو أدركتم فضل ما عندكم على ما عند غيركم لحمدتم الله أن أنبتكم من أصلاب مسلمة ورباكم في محاضن المسلمين وأنشأكم على هذا الدين العظيم، إن معنى النبوة، معنى الألوهية، معنى الوحي، الرسالة، البعث، الحساب، كل تلك المعاني عندكم وعند غيركم فرق ما بين السماء والأرض.

ثم يضيف قائلاً:

لقد جذبني لهذا الدين وضوح العقيدة، ذلك الوضوح الذي لا أجده في عقيدة سواه".

وقصته مع الإسلام هي:

كان من المبشرين الناشطين جداً في الدعوة إلى النصرانية وأيضاً هو من الذين لديهم علم غزير بالكتاب المقدس (الإنجيل المحرف) bible.

هذا الرجل يحب الرياضيات بشكل كبير، لذلك يحب المنطق أو التسلسل المنطقي للأمور، في أحد الأيام -من سنة ١٣٩٨/١٩٧٨- أراد أن يقرأ القرآن بقصد أن يجد فيه بعض الأخطاء التي تعزز موقفه عند دعوته للمسلمين للدين النصراني، كان يتوقع أن يجد القرآن كتاباً قديماً مكتوباً منذ ١٤ قرناً يتكلم عن الصحراء وما إلى ذلك، لكنه ذهل مما وجده فيه، بل واكتشف أن هذا الكتاب يحتوي على أشياء لا توجد في أي كتاب آخر في هذا العالم.

---

(١) "عظماء أسلموا": ١٠٦-١١٣.

كان يتوقع أن يجد بعض الأحداث العصيبة التي مرت على النبي محمد ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة -رضي الله عنها- أو وفاة بناته وأولاده، لكنه لم يجد شيئاً من ذلك، بل الذي جعله في حيرة من أمره أنه وجد أن هناك سورة كاملة في القرآن تسمى سورة مريم وفيها تشريف لمريم -عليها السلام- لا يوجد مثيل له في كتب النصارى ولا في أناجيلهم!!

ولم يجد سورة باسم عائشة أو فاطمة -رضي الله عنهما- وكذلك وجد أن عيسى عليه السلام ذكر بالاسم ٢٥ مرة في القرآن في حين أن النبي محمد ﷺ لم يذكر إلا ٤ مرات فقط، فزادت حيرة الرجل.

أخذ يقرأ القرآن بتمعن أكثر لعله يجد مأخذاً عليه، ولكنه صعق بآية عظيمة وعجيبة ألا وهي الآية رقم ٨٢ في سورة النساء: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1]، يقول الدكتور ميلر عن هذه الآية: "من المبادئ العلمية المعروفة في الوقت الحاضر هو مبدأ إيجاد الأخطاء أو تقصي الأخطاء في النظريات إلى أن تثبت صحتها Falsification Test.

والعجيب أن القرآن الكريم يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه ولن يجدوا.

ويقول: أيضاً عن هذه الآية الكريمة: "لا يوجد مؤلف في العالم يمتلك الجرأة ويؤلف كتاباً ثم يقول هذا الكتاب خالٍ من الأخطاء، ولكن القرآن على العكس تماماً يقول لك: لا يوجد أخطاء، بل ويعرض عليك أن تجد فيه أخطاء ولن تجد.

أيضاً من الآيات التي وقف الدكتور ميلر عندها طويلاً هي الآية رقم ٣٠ من سورة الأنبياء: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

يقول: "إن هذه الآية هي بالضبط موضوع البحث العلمي الذي حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٧٣ وكان عن نظرية الانفجار الكبير، وهي تنص أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب، فالرتق هو الشيء المتماسك، في حين أن الفتق هو الشيء المتفكك فسبحان الله".

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

ويقول الدكتور ميلر: "الآن نأتي إلى الشيء المذهل في أمر النبي محمد ﷺ والادعاء بأن الشياطين هي ال تعينه، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾[1]، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[2]".

أرأيتم؟ هل هذه طريقة الشيطان في كتابة أي كتاب؟ يؤلف كتاباً ثم يقول قبل أن تقرأ هذا الكتاب: يجب عليك أن تتعوذ مني؟ إن هذه الآيات من الأمور الإعجازية في هذا الكتاب المعجز وفيها رد منطقي لكل من قال بهذه الشبهة.

ومن القصص التي أبهرت الدكتور ميلر ويعتبرها من المعجزات هي قصة النبي ﷺ مع أبي لهب، يقول الدكتور ميلر:

"هذا الرجل أبو لهب كان يكره الإسلام كرهاً شديداً لدرجة أنه كان يتبع محمداً ﷺ أينما ذهب ليقلل من قيمة ما يقوله الرسول ﷺ، إذا رأى الرسول يتكلم إلى أناس غرباء فإنه ينتظر حتى ينتهي الرسول من كلامه ليذهب إليهم ثم يسألهم ماذا قال لكم محمد؟ لو قال لكم أبيض فهو أسود، ولو قال لكم ليل فهو نهار، والمقصد أنه يخالف أي شيء يقوله الرسول الكريم ﷺ ويشكك الناس فيه.

وقبل عشر سنوات من وفاة أبي لهب نزلت سورة في القرآن اسمها سورة المسد، هذه السورة تقرر أن أبا لهب سوف يذهب إلى النار، أي بمعنى آخر أن أبا لهب لن يدخل الإسلام.

وخلال عشر سنوات كاملة كل ما كان على أبي لهب أن يفعله هو أن يأتي أمام الناس ويقول "محمد يقول: إني لن أسلم وسوف أدخل النار ولكني أعلن الآن أني أريد أن أدخل الإسلام وأصبح مسلماً!! الآن ما رأيكم هل محمد صادق فيما يقول أم لا؟ هل الوحي الذي يأتيه وحي إلهي؟" لكن أبا لهب لم يفعل ذلك تماماً رغم أن كل أفعاله كانت هي مخالفة الرسول ﷺ لكنه لم يخالفه في هذا الأمر، يعني القصة كأنها تقول: إن النبي ﷺ يقول لأبي لهب: أنت تكرهني وتريد أن تهينني، حسناً لديك الفرصة أن تنقض كلامي!

لكنه لم يفعل خلال عشر سنوات كاملة!! لم يسلم و لم يتظاهر حتى بالإسلام عشر سنوات كانت لديه الفرصة أن يهدم الإسلام بدقيقة واحدة! ولكن لأن الكلام هذا ليس كلام محمد ﷺ ولكنه وحي ممن يعلم الغيب ويعلم أن أبا لهب لن يسلم.

كيف لمحمد ﷺ أن يعلم أن أبا لهب سوف يثبت ما في السورة إن لم يكن هذا وحياً من الله؟؟ كيف يكون واثقاً خلال عشر سنوات كاملة أن ما لديه حق لو لم يكن يعلم أنه وحي من الله؟؟ لكي يضع شخص هذا التحدي الخطير ليس له إلا معنى واحد، هذا وحي من الله:

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢١٠-٢١٢.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٨.

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾[1].

يقول الدكتور ميلر عن آية أبهرته لإعجازها الغيبي: من المعجزات الغيبية القرآنية هو التحدي للمستقبل بأشياء لا يمكن أن يتنبأ بها الإنسان وهي خاضعة لنفس الاختبار السابق ألا وهو Falsification Tests أو مبدأ إيجاد الأخطاء حتى تتبين صحة الشيء المراد اختباره، وهنا سوف نرى ماذا قال القرآن عن علاقة المسلمين مع اليهود والنصارى، القرآن يقول: إن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين، وهذا مستمر إلى وقتنا الحاضر فأشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود.

ويكمل الدكتور ميلر:

إن هذا يعتبر تحدياً عظيماً ذلك أن اليهود لديهم الفرصة لهدم الإسلام بأمر بسيط ألا وهو أن يعاملوا المسلمين معاملة طيبة لبضع سنين ويقولون عندها:

ها نحن نعاملكم معاملة طيبة والقرآن يقول: إننا أشد الناس عداوة لكم، إذن القرآن خطأ!، ولكن هذا لم يحدث خلال ١٤٠٠ سنة!! ولن يحدث لأن هذا الكلام نزل من الذي يعلم الغيب وليس إنساناً.

يكمل الدكتور ميلر:

هل رأيتم أن الآية التي تتكلم عن عداوة اليهود للمسلمين تعتبر تحدياً للعقول:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2]، وعموماً هذه الآية تنطبق على الدكتور ميلر حيث إنه من النصارى الذي عندما علم الحق آمن ودخل الإسلام وأصبح داعية له، وفقه الله.

يكمل الدكتور ميلر عن أسلوب فريد في القرآن أذهله لإعجازه:

بدون أدنى شك يوجد في القرآن توجه فريد ومذهل لا يوجد في أي مكان آخر، وذلك أن القرآن يعطيك معلومات معينة ويقول لك: لم تكن تعلمها من قبل، مثل:

---

(١) سورة المسد.

(٢) سورة المائدة: الآيات ٨٢-٨٤.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[1].

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[3].

يكمل الدكتور ميلر:

"لا يوجد كتاب مما يسمى بالكتب الدينية المقدسة يتكلم بهذا الأسلوب، كل الكتب الأخرى عبارة عن مجموعة من المعلومات التي تخبرك من أين أتت هذه المعلومات، على سبيل المثال الكتاب المقدس (الإنجيل المحرف) عندما يناقش قصص القدماء فهو يقول لك: الملك فلان عاش هنا، وهذا القائد قاتل هنا معركة معينة وشخص آخر كان له عدد كذا من الأبناء، وأسماؤهم فلان وفلان .. الخ.

ولكن هذا الكتاب (الإنجيل المحرف) دائماً يخبرك إذا كنت تريد المزيد من المعلومات يمكنك أن تقرأ الكتاب الفلاني أو الكتاب الفلاني لأن هذه المعلومات أتت منه، يكمل الدكتور جاري ميلر: بعكس القرآن الذي يمد القارئ بالمعلومة ثم يقول لك: هذه معلومة جديدة!! بل ويطلب منك أن تتأكد منها إن كنت متردداً في صحة القرآن بطريقة لا يمكن أن تكون من عقل بشر!!

والمذهل في الأمر هو أهل مكة في ذلك الوقت -أي وقت نزول هذه الآيات- ومرة بعد مرة كانوا يسمعونها ويسمعون التحدي بأن هذه معلومات جديدة لم يكن يعلمها محمد ﷺ ولا قومه، وبالرغم من ذلك لم يقولوا: هذا ليس جديداً بل نحن نعرفه، أبداً لم يحدث أن قالوا مثل ذلك، و لم يقولوا: نحن نعلم من أين جاء محمد بهذه المعلومات، أيضاً لم يحدث مثل هذا، ولكن الذي حدث أن أحداً لم يجرؤ على تكذيبه أو الرد عليه لأنها فعلاً معلومات جديدة كلياً وليست من عقل بشر ولكنها من الله الذي يعلم الغيب في الماضي والحاضر والمستقبل".

جزاك الله خيراً يا دكتور ميلر على هذا التدبر الجميل لكتاب الله في زمن قلّ فيه التدبر.

مراجعة دخل الإسلام، ومنذئذ أصبح نشطاً بتقديمه للناس، بما في ذلك استخدام المذياع والبرامج التلفازية، وهو أيضاً مؤلف العديد من المقالات والنشرات الإسلامية، نذكر منها: "ردٌّ موجزٌ على المسيحية: "وجهة نظر المسلم"، و"القرآن العظيم"، و"خواطر حول براهين ألوهية المسيح"، و"أسس عقيدة المسلم"، و"الفرق بين الإنجيل والقرآن"، و"المسيحية التبشيرية: تحليل مسلم".

قال الدكتور عن وصف القرآن بالعظمة:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

(٢) سورة هود: الآية ٤٩.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٢.

وَصْفُ القرآن بالعظيم ليس شيئاً يفعله المسلمون فقط -وهم الذين يقدرون هذا الكتاب حق قدره، وهم به جدُّ سعداء- بل إن غير المسلمين أيضاً قد صنَّفوه ككتاب عظيم، وحقاً، حتى أولئك الذين يكرهون الإسلام كرهاً شديداً ما زالوا يدعونه عظيماً.

أحد الأشياء التي تفاجئ غير المسلمين الذين يتفحصون هذا الكتاب عن قرب، هو أنّ القرآن لا يتكشف لهم كما كانوا يتوقعون، فما يفترضونه هو أن بين أيديهم كتابٌ قديم جاء من الصحراء العربية قبل أربعة عشر قرناً، ويتوقعون بأنه بالضرورة يحمل نفس الانطباع -كتاب قديم من الصحراء- لكنهم بعدئذ يجدون بأنه لا يشبه مطلقاً ما كانوا يتوقعون.

بالإضافة إلى ذلك، واحدٌ من أول الأشياء التي يفترضها بعض الناس هو أن هذا الكتاب القديم، ولأنه جاء من الصحراء، فإنه بالضرورة يتحدث عن الصحراء، حسناً، فالقرآن يتحدث عن الصحراء في بعض مجازاته اللغوية التي تصف الصحراء؛ ولكنه أيضاً يتحدث عن البحر، ولقد صوَّر لنا كيف تكون العاصفة على سطح البحر.

قبل بضع سنوات، وصلتنا قصة إلى تورنتو (كندا) عن رجل كان بحَّاراً في الأسطول التجاريّ، ويكسب رزقه من عمله في البحر، أعطاه أحد المسلمين ترجمةً لمعاني القرآن الكريم ليقرأها، و لم يكن هذا البحّار يعرف شيئاً عن تاريخ الإسلام، لكنَّه كان مهتماً بقراءة القرآن الكريم.

وعندما أنهى قراءته حمله وعاد به إلى المسلم الذي أعطاه إياه، وسأله: "محمد هذا ﷺ، أكان بحّاراً؟ فقد كان الرجل مندهشاً من تلك الدِّقة التي يصف بها القرآن العاصفة على سطح البحر، وعندما جاءه الردُّ: "لا، في الحقيقة لم يكن، فمحمد ﷺ عاش في الصحراء".

لقد كان هذا كافياً له ليُعلن إسلامه على الفور، لقد كان متأثراً جداً بالوصف القرآني للعاصفة البحرية، لأنه بنفسه كان مرة في خضمها، وكان لذلك يعلم أنه أياً مَن كان الذي كتب هذا الوصف فإنه لابد وقد عاش هذه العاصفة بنفسه.

فالوصف الذي جاء في القرآن عن العاصفة لم يكن شيئاً يستطيع أن يكتبه أي كاتب من محض خياله، والموج الذي من فوقه موج من فوقه سحاب لم يكن شيئاً يمكن لأحدهم تخيله والكتابة عنه، بل إنه وصفٌ كتبه من يعرف حقاً كيف تبدو العاصفة البحرية.

هذا مثل واحد على أن القرآن ليس مرتبطاً بزمان أو مكان، ومن المؤكد أن الإشارات العلميّة التي يُعبر عنها لا يمكن أن يكون أصلها من الصحراء قبل أربعة عشر قرناً مضت.

قبل عدّة سنوات، قام بعض المسلمين من الرياض في -المملكة العربية السعودية- بجمع كلّ الآيات القرآنية التي تتحدث عن علم الأجنة، وهو العلم الذي يدرس مراحل نموِّ الجنين في الرَّحم؛ ثم قالوا: "هذا ما يقوله القرآن الكريم، فهل هو حق؟" في الحقيقة، لقد أخذوا بنصيحة القرآن الكريم: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون".

وحصل أن اختاروا أستاذاً جامعياً في علم الأجنة من جامعة تورونتو في كندا، و لم يكن مسلماً، هذا الأستاذ يُدعى كيث موور، وهو مؤلف للعديد من الكتب في علم الأجنة، ويعد من

الخبراء العالميين المبرِّزين في هذا المجال، وجَّهوا له الدعوة إلى الرياض، ثم قالوا له: "هذا ما يقوله القرآن الكريم فيما يخصُّ تخصصكم فهل هو صحيح؟ ماذا تستطيع أن تخبرنا عن ذلك؟" وأثناء إقامته في الرياض، قدَّموا له كل المساعدة التي احتاجها في الترجمة وكل العون الذي كان يطلبه، لقد كان مذهولاً جداً بما وجد بحيث إنه غير بعض النصوص في كتبه.

في الواقع، قام في الطبعة الثانية لكتاب "قبل أن نولد"، وفي الطبعة الثانية من "تاريخ علم الأجنَّة" بإضافة بعض المواد التي لم تكن موجودة في الطبعة الأولى، وذلك لِما وجده في القرآن الكريم، وحقاً فإن هذا يُصوِّر بوضوحٍ أن القرآن الكريم سابقٌ لزمانه، وأنّ أولئك الذين يؤمنون به يعرفون ما لا يعرفه الآخرون.

لقد كان من دواعي سروري أنّي أجريت لقاءً تلفازياً مع الدكتور كيث موور، وتحدَّثنا مُطولاً حول هذا الموضوع، وكان ذلك بالاستعانة بالصور التوضيحية وغيرها، وقد ذكر بأن بعض الأشياء التي ذكرها القرآن الكريم عن نموِّ الإنسان لم تكن معروفةً إلى ما قبل ثلاثين عاماً.

لقد ذكر في الواقع موضوعاً مُعيَّناً بشكل خاص، وهو وصف القرآن الكريم للإنسان "بالعلقة" في إحدى مراحل نموِّه، وأنَّ هذا الوصف كان جديداً بالنسبة إليه، ولكنَّه عندما تفحَّص الأمر وجده حقيقة، وهكذا أضافه إلى كتابه، لقد قال: "لم يخطر ببالي ذلك أبداً من قبل"، ولهذا فقد ذهب إلى قسم علم الحيوان وطلب صورةً للعلقة، وعندما وجد أنَّها تشبه الجنين تماماً في هذه المرحلة من النموّ، قرَّر أن يضع الصورتين في أحد كتبه:صورة الجنين وصورة العلقة.

بعد ذلك قام الدكتور موور أيضاً بتأليف كتاب عن علم الأجنّة السريريِّ، وعندما نشر هذه المعلومات في تورونتو سبَّبت ضجَّةً كبيرةً في كلِّ أنحاء كندا، لقد كانت في بعض الصُّحف على الصفحات الأولى وفي جميع أنحاء كندا، وبعض العناوين الرئيسية كانت شديدة الطَّرافة، فمثلاً، كان أحد العناوين الرئيسيّة يقول:

"شيء مدهشٌ وُجدَ في كتاب قديم!" ويبدو واضحاً من هذا المثل أن الناس لم يفهموا بوضوحٍ حول ماذا كانت كلُّ تلك الضجَّة.

وأحد الأمور التي حدثت حقاً أن أحد الصحفيين سأل الدكتور موور: "ألا تعتقد أنَّ العرب ربَّما كانوا يعرفون هذه المعلومات عن هذه الأشياء، أي عن وصف الجنين، وعن شكله وكيف يتغيَّر وينمو؟ فربَّما لم يكن هناك علماء، ولكنهم ربما قاموا بشيء من التشريح الوحشي على طريقتهم أي قاموا بتقطيع الناس وتفحص هذه الأشياء".

فأشار له الدكتور على الفور بأنه نسي شيئاً في غاية الأهمية، وهو أن كل صور الجنين التي عرضت في الفيلم قد جاءت من صور أُخذت عن طريق المجهر؛ وأضاف قائلاً: "ليست المسألة هي إنْ كان أحد النَّاس قد حاول اكتشاف علم الأجنّة قبل أربعة عشر قرناً مضت، ولكنَّها في أنه لو حاول ذلك فإنه لم يكن باستطاعته رؤية شيء على الإطلاق!" فكلُّ ما يصفه القرآن الكريم عن

شكلَ الجنين هو عندما يكون صغيراً جداً ولا يُرى بالعين المجردة، لذا فالمرء بحاجةٍ إلى مجهرٍ ليرى ذلك، إلا أنَّ مثل هذه الآلة لم تُكتشف إلا قبل أكثر من مائتي عامٍ بقليل، وأضاف الدكتور موور ساخراً: "ربما كان لدى أحدهم -قبل أربعة عشر قرناً مضت- مجهر سريّ، فقام بعمل هذه الأبحاث، و لم يرتكب أثناء ذلك أيَّ خطأٍ يُذكر، ثم علَّم محمداً ﷺ ذلك بطريقةٍ ما، وأقنعه بأن يضع هذه المعلومات في كتابه؛ وبعدئذ حطم مجهره، واحتفظ بسرِّه للأبد، فهل أنت تصدِّق ذلك؟! يجب عليك حقاً ألا تفعل، حتَّى تحضر دليلاً للإثبات، لأن مثل هذه النظرية ما هي إلا سخافة!".

وعندما سُئل الدكتور موور: "كيف تفسِّر إذاً وجود مثل هذه المعلومات في القرآن؟"

كان ردُّه: "لم يكن هذا ممكناً إلا بوحي من الله -سبحانه وتعالى-![1]".

ـ تلك كانت بعض القصص المؤثرة لمن أسلم من المعاصرين تأثراً بالقرآن العظيم.

(١) "عظماء أسلموا": ١٣٧- ١٥٦.

المبحث التاسع: تدبر القرآن العظيم

قد حثنا الله تبارك وتعالى على حسن تدبر كتابه فقال جل من قائل:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[١].

وقال سبحانه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[٢].

قال السُلمي: سمعت الإمام أبا عثمان المغربي يقول:

والتدبر هو النظر في عاقبة الأمور ومآلاتها ونهاياتها، والمقصود به -هاهنا- هو تأمل معاني القرآن الكريم وتَبَصُّر ما فيه، والتذكر والتفكر بأوامره ونواهيه[٣].

ليكن تدبرك في الخلق تدبر عبرة، وتدبرك في نفسك تدبر موعظة، وتدبرك في القرآن تدبر حقيقة، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ جرّأك به على تلاوته، ولولا ذلك لكلّت الألسن عن تلاوته[٤].

ـــ وقيل لأحد السلف: لكل كتاب عنوان، فما عنوان القرآن؟

فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٥] .

فالمطلوب الأعظم من إنزال القرآن هو تدبره وتفهمه حتى يُستفاد مما فيه الاستفادة التي من أجلها أُنزل القرآن، وقلة تدبر القرآن هي العلة في تخلفنا اليوم وضعفنا وهواننا، ومثالاً على قلة التدبر هو ما نراه من حال الناس مع القرآن في رمضان حيث إنهم يقبلون عليه إقبالاً عظيماً، ويظلون يقرأونه في المساجد والبيوت حتى يختموه مرة ومرتين وثلاثاً وأكثر من ذلك، لكن أكثر هؤلاء لا يتدبرون ما يقرأونه، ولا يأتمرون بأوامره ولا ينزجرون بزواجره، ولذلك لم تستفد الأمة من القرآن العظيم حق الاستفادة، وإن كان حالها في هذا الوقت أحسن بكثير من حالها قبل صحوتها الأخيرة، قبل ثلث قرن ولله الحمد والمنة.

وقد ذم السلف هذا الصنيع فهذا ابن عمر -رضي الله عنهما- يقول:

"لقد عشنا بُرهة من دهرنا وإن أحدنا ليُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يُوقف عنده منها، ولقد رأيت اليوم رجالاً يُؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه".[٦]

وقال الحسن البصري، رحمه الله تعالى:

---

(١) سورة محمد ﷺ: آية ٢٤.

(٢) سورة النساء: آية ٨٢.

(٣) انظر "فهم القرآن: مناهج وآفاق": ٦٣-٦٤.

(٤) انظر السير: ٣٢٠/١٦.

(٥) سورة ص: آية ٢٩.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد": ١٦٥/١: رجاله رجال الصحيح.

"قراء القرآن ثلاثة أصناف:

صنف اتخذوه بضاعة.

وصنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده، واستطالوا به على أهل بلادهم، واستدّروا به الولاة، وقد كثـر هذا الضرب من حملة القرآن لا كثّرهم الله.

وصنف عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم فاستشعروا الخوف...

فأولئك الله ينصر بهم على الأعداء، ويسقي بهم الغيث، فوالله لهذا من حملة القرآن أقلّ مـن الكبريـت الأحمر".[١]

وقال ابن مسعود ﷺ:

"أنــزل القرآن ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به".[٢]

وقال الحسن البصري، رحمه الله تعالى:

"إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد -والله- أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني أقرأ السورة في نَفَس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلمـاء ولا الحكماء ولا الوَرَعَة، متى كانت القراء مثل هذا؟ لا كثّر الله في الناس أمثالهم".[٣]

وجاء رجل بابنه إلى أبي الدرداء فقال له:

يا أبا الدرداء: إن ابني هذا قد جمع القرآن.

فقال: اللهم غُفْراً، إنما جمع القرآن من سمع له وأُطاع"[٤] ومعنى جمعه أي حفظه عن ظهر قلب.

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في "مختصر قيام الليل": ٤٦ وانظر "فهم القرآن: مناهج وآفاق": ٩٨-٩٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

صور من تدبر كتابِ الله تعالى

قد كان الصدر الأول وعلى رأسهم الرسول الأعظم محمد ﷺ فمن بعدهم من أكابر السلف وعظماء الخلف على غاية من التدبر لكتاب الله -تعالى- جليلة عظيمة، وعلى ذلك صور كثيرة منها:

ـــ عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ : "اقْرأْ عليَّ القُرآنَ".

قلت: يا رسول الله أقرأُ عليك وعليك أُنزِل؟

قال ﷺ: "إني أشتهي أن أسمعه من غيري".

فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[١] فغمزني برجله، فإذا عيناه تذرفان.[٢]

ـــ وعن الحسن قال:

كان عمر بن الخطاب يمر بالآية من ورده فيسقط حتى يُعاد منها أياماً.[٣]

ـــ عن أبي العالية قال:

إن الله قضى على نفسه أن من آمن به هداه، وتصديق ذلك في كتاب الله:

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[٤].

ومن توكل عليه كفاه، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[٥].

ومن أقرضه جازاه، وتصديق ذلك في كتاب الله:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[٦].

ومن استجار مِن عذابه أجاره وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾[٧]، والاعتصام الثقة بالله.

ومن دعاه أجابه، وتصديق ذلك في كتاب الله:

---

(١) سورة النساء: آية ٤١.

(٢) انظر السير: ١/٤٦١- ٥٠٠، والحديث صحيح مشهور.

(٣) "نزهة الفضلاء": ٣/٤٩.

(٤) سورة التغابن: آية ١١.

(٥) سورة الطلاق: آية ٣.

(٦) سورة البقرة: آية ٢٤٥.

(٧) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1].[2]

ـــ وعن عطاء بن السائب، أن أبا عبدالرحمن السلمي قال:

"حدثنا الذي كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يُخلّوه حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً".[3]

ـــ وعن الحسن البصري قال:

يا ابن آدم، والله إن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولن في الدنيا حزنك، وليشتدن في الدنيا خوفك وليكثرن في الدنيا بكاؤك[4].

ـــ وعن الضحاك بن مزاحم، قال: حَقٌ على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً، وتلا قول الله تعالى:

﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[5].[6]

ـــ وقال إبراهيم بن بشار، حدثنا ابن عيَينة قال:

كان عمر بن ذر إذا قرأ: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال: يا لك من يوم ما أملأ ذكرك لقلوب الصادقين.[7]

ـــ وقال يزيد بن الكميت:

كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله -تعالى- فقرأ بنا عليّ بن الحسن ليلةً في العشاء الآخرة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[8]، وأبو حنيفة خلفه، فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إليه وهو جالس يتفكر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، فلما خرجت تركت القنديل ولم يكن فيه إلا زيتٌ قليلٌ، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائمٌ يصلي، وقد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يامَن يجزي بمثقال ذرة خيراً خيراً، ويا من يجزي بمثقال ذرة شراً شراً، أجرِ النعمانَ عبدكَ من النار ومما يقرب منها من سوء، وأدخله في سعة رحمتك قال: فأذّنت والقنديل يزهر وهوَ قائم، فلما دخلت قال: تريد أن تأخذ القنديل؟

قلت: قد أُذِّن لصلاة الغداة.

قال: اكتم عليّ ما رأيت، وركع ركعتين وجلس حتى أقيمت الصلاة، وصلى معنا الغداة على وضوء أول الليل[9].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٦.

(٢) انظر السير: ٢٠٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده والأثر صحيح.

(٤) انظر السير: ٥٦٣.

(٥) سورة آل عمران: آية ٧٩.

(٦) انظر السير: ٥٩٨.

(٧) انظر السير: ٦/٣٨٥- ٣٩٠.

(٨) سورة الزلزلة: ١.

(٩) المصدر السابق: ١١٩٨/٢.

ـــ وجاء في ترجمة ابن عطاء الأدمي، قال الإمام الذهبي:

كان له في كل يوم ختمة، وفي رمضان تسعون ختمة، وبقي في ختمةٍ مفردة بضع عشرة سنة يتفهم ويتدبر.[١]

قال الإمام الغزالي في رسالةٍ كتبها إلى بعض أهل عصره:

"فعلاج مرض القلب أهم من علاج مرض الأبدان، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

وله دواءان:

أحدهما: ملازمة ذكر الموت، وطول التأمل فيه، مع الاعتبار بخاتمة الملوك، وأرباب الدنيا، أنهم كيف جمعوا كثيراً، وبنوا قصوراً، وفرحوا بالدنيا بطراً وغروراً، فصارت قصورهم قبوراً، وأصبح جمعهم هباءً منثوراً: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[٢].

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾[٣].

فقصورهم، وأملاكهم، ومساكنهم، صوامت ناطقة، تشهد بلسان حالها على غرور عمالها ، فانظر الآن في جميعهم: ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾[٤].

الدواء الثاني:

تدبر كتاب الله تعالى، ففيه شفاء ورحمةٌ للعالمين:

وقد أوصى رسول الله ﷺ بملازمة هذين الواعظين، فقال: "تركت فيكم واعظين صامتاً وناطقاً، الصامت الموت، والناطق القرآن"[٥].

وقد أصبح أكثرُ الناس أمواتاً عن كتاب الله تعالى وإن كانوا أحياء في معايشهم، وبُكْماً عن كتاب الله تعالى وإن كانوا يتلونه بألسنتهم، وصُماً عن سماعه وإن كانوا يسمعونه بآذانهم، وعُمياً عن عجائبه وإن كانوا ينظرون إليه في صحائفهم ومصاحفهم، نائمين عن أسراره وإن كانوا يشرحونه في تفاسيرهم.

فاحذر أن تكون منهم، وتدبر أمرك، وأمر من لم يتدبر كيف يقوم ويحشر!

---

(١) المصدر السابق: ١٤/٢٥٥- ٢٥٦.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٨.

(٣) سورة السجدة: الآية ٢٦.

(٤) سورة مريم: الآية ٩٨.

(٥) لم يصح هذا الحديث.

وانظر في أمرك وأمر من لم ينظر في أمر نفسه، كيف خاب عند الموت، وخسر!

واتعظ بآية واحدة من كتاب الله، ففيه مقنع وبلاغ لكل ذي بصيرة، قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[1] إلى آخرها.

وإياك، ثم إياك، أن تشتغل بجمع المال، فإن فرحك به ينسيك أمر الآخرة، وينــزع حلاوة الإيمان من قلبك، قال عيسى، صلوات الله عليه وسلامه:

"لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم".

وهذه ثمرة مجرد النظر، فكيف عاقبة الجمع، والطغيان، والنظر!".[2]

ــ قال ابن مجاهد للشيخ أبي بكر الشِبْلي رحمهما الله:

أين في العلم إفساد ما يُنتفع به؟

قال له: فأين قوله: ﴿ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾[3]، ولكن أين معك يا مقرئ في القــرآن المحب لا يعذب حبيبه؟

فسكــت، قــال الشبلي: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[4][5].

ــ قال القزويني لأحد تلاميذه:

من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان، مع القيراط أو غير القيراط ؟

قال: قلت: مع القيراط.

قال: جيدٌ بالغ.

ونهض فدخل مسجده، وطالبني أهل المسجد بدليل، فقلت لهم: في القرآن مثله، قال الله تعالى:

﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ ﴾[6] مع اليومين.[7]

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٩.

(٢) "المختار من طبقات الشافعية الكبرى": ١٢٢-١٢٣.

(٣) سورة ص: الآية ٣٣.

(٤) سورة المائدة: الآية ١٨، وتكملتها بيان لموضع الشاهد: "قل فلم يعذبكم بذنوبكم".

(٥) "طبقات الشافعية الكبرى": ٣/٥٧- ٥٨.

(٦) سورة فصلت: آية ٩-١٠.

(٧) "المختار من طبقات الشافعية الكبرى": ٨٨.

ـــ وسمع أبو الحسن القابسيّ شخصاً يقول في مجلسه: ما قصّر المتنبي في قوله (من المتقارب):

يــراد مـــن القلـــب نســـيانكم وتـــأبى الطبـــاع علـــى الناقـــل

فقال: يا مسكين، أين أنت عن قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[1][2].

ـــ قال ابن خفيف: سألَنا يوماً القاضي أبو العباس ابن سريج بشيراز، وكنا نحضر مجلسه لدرس الفقــه، فقال لنا: محبة الله فرض أو غير فرض؟

قلنا: فرض.

قال: وما الدلالة على ذلك؟

فما فينا من أتى بشيء فقُبل، فرجعنــا إليــه وسألناه الدليل، فقال: قولــه تعــالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ إلى قولــه: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[3].

قال: فتوعدهم الله عز وجل على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ومحبة رسوله، والوعيد لا يقع إلا علــى فرض.

قال تاج الدين السبكي: ومثل هذا الدليل في الدلالة على محبة النبي ﷺ، قوله:

"لا يومن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وأهله، وماله، وولده، والناس أجمعين".[4]

ـــ وقال تاج الدين السبكي:

قال الوالد:

لم لا قيل: اتخذ هواه إلهه؟[5].

قال الوالد: فما زلت مفكراً في الجواب مذ أربعين سنة، حتى تلوت ما قبلهــا، وهو قولــــه: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾[6] إلى قولهم ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾[7].

فعلمت أن المراد الإله المعبود بالباطل، الذي عكفوا عليه وصبروا وأشفقوا من الخروج عنــه، فجعلــوه هواهم.[8]

---

(١) سورة الروم: آية ٣٠.

(٢) الوافي بالوفيات: ٢١/ ٤٥٧، ٤٥٨. يعني أن قول الله تعالى أدلُّ على المراد وأحسن بياناً.

(٣) سورة التوبة: آية ٢٤.

(٤) "طبقات الشافعية الكبرى": ١٤٩/٣.

(٥) وذلك في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ من سورة الفرقان: آية ٤٣.

(٦) سورة الفرقان: آية ٤١.

(٧) سورة الفرقان: آية ٤٢.

(٨) "المختار من طبقات الشافعية الكبرى": ٢٦٩.

قال الماوردي:

سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم، يقول: سمعت أبي، يقول: سألتُ الحسْينَ بن الفضـ فقلت:

إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن؛ فهل تجد في كتاب الله "خير الأمور أوساطها"؟

قال نعم: في أربعة مواضع:

قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[4].

قلت: فهل تجد في كتاب الله "مَنْ جهل شيئاً عاداه"؟

قال نعم: في موضعين:

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾[5]، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[6].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: "احذر شرّ من أحسنت إليه"؟

قال: نعم ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[7].

قلت: فهل تجد في كتاب الله "ليس الخبر كالعيان"؟

قال في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[8].

قلت: فهل تجد "في الحركات البركات"؟

قال: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[9].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦٨.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٥) سورة يونس: الآية ٣٩.

(٦) سورة الأحقاف: الآية ١١.

(٧) سورة التوبة: الآية ٧٤.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٩) سورة النساء: الآية ١٠٠.

قلت: فهل تجد "كما تدين تدان"؟

قال: في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[1].

قلت: فهل تجد فيه قولهم: "حين تَقْلِي تدري"؟

قال: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2].

قلت: فهل تجد فيه "لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين"؟

قال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾[3].

قلت: فهل تجد فيه "من أعان ظالماً سُلّط عليه"؟

قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[4].

قلت: فهل تجد فيه قولهم: "لا تلد الحيّة إلا حيّة"؟

قال: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[5].

قلت: فهل تجد فيه: "للحيطان آذان"؟

قال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[6].

قلت: فهل تجد فيه: "الجاهل مرزوق والعالم محروم"؟

قال: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[7].

قلت: فهل تجد فيه: "الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام لا يأتيك إلا جُزافاً"؟

قال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[8].[9]

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٢.

(٣) سورة يوسف: الآية ٦٤.

(٤) سورة الحج: الآية ٤.

(٥) سورة نوح: الآية ٢٧.

(٦) سورة التوبة: الآية ٤٧.

(٧) سورة مريم: الآية ٧٥.

(٨) سورة الأعراف: الآية ١٦٣.

(٩) "الاتقان في علوم القرآن": ٤/٣-٤٣.

ـــ أُدخل رجل من الخوارج على المأمون الخليفة العباسي فقال له:

ما حملك على الخروج والخلاف؟

قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١).

قال: ألك علم بأنها منـــزلة؟

قال: نعم.

قال: ما دليلك؟

قال: إجماع الأمة.

قال: فكما رضيت بإجماعهم في التنـــزيل فارضَ بإجماعهم في التأويل.

فقال: صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين.(٢)

...

ـــ وقال إبراهيم بن الأشعث:

ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله، أو ذُكِرَ عندَه، أو سمع القـــرآن ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره.(٣)

ترديد آية طوال الليل:

ـــ قد ردد أبو حنيفة ليلةً كاملةً قولَه تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾(٤).

ـــ وكان الشيخ تقي الدين السُبكيّ (٧٥٦) ربما تلا آية واحدة، فكررها إلى مطلع الفجر، استمع لـ بعض أصحابه ليلة وهو يقـــرأ، فوصـــل إلى قولـــه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾(٥) قال: فما زال يكررها إلى طلوع الفجر(٦).

وهذا الشيخ الصالح الورع علي العيّاش، المصري، مكث نحو ستين سنة ما وضع جنبـــه علـــى الأرض وكان يقرأ القرآن ويردده ويبكي إلى الصباح ولا يزيد على خمسة أحزاب، وقراءة كل ليلة سورة طه من بع صلاة العشاء فما زال يرددها ويبكي إلى الصباح، توفي سنة ٩٥٦، رحمه الله تعالى(٧).

---

(١) سورة المائدة: آية ٤٤.

(٢) الوافي بالوفيات: ١٧/ ٦٥٤.

(٣) المصدر السابق: ٨/ ٤٢١.

(٤) "الأخبار العليات": ١١٩٣/٢.

(٥) سورة المؤمنين: آية ١٠١.

(٦) "المختار من طبقات الشافعية الكبرى": ٢٤٥.

(٧) "الكواكب السائرة": ٢٢٢/٢.

القرآن شغل العلماء

قال ابن وهب: قيل لأخت مالك:

ما كان شغل مالكٍ في بيته؟

قالت: المصحف، التلاوة.[١]

التنبيه على عدم ترك القرآن اشتغالاً بعلوم أخرى:

قال سلم بن قتيبة: ربما سمعت شعبة يقول لأصحاب الحديث:

يا قوم: إنكم كلما تقدمتم في الحديث تأخرتم في القرآن.[٢]

قلت: يريد بهذا -رحمه الله تعالى- أنهم قد أفرطوا في الإقبال على الحديث وأَقَلُّوا من قراءة القرآن، يريد أن ينبههم ويعظهم.

الصَّعْقُ والإغماء عند سماعِه:

قال أبوبكر بن عيّاش: صليت خلف فضيل بن عياض المغربَ وابنُه عليٌّ إلى جانبي فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٣] فلما قال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾[٤] سقط عليٌّ على وجهه مغشياً عليه.[٥]

ـــ وعن محمد بن ناجية قال:

صلّيتُ خلف الفضيل بن عياض، فقرأ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ في الصبح فلما بلغ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[٦] غلبه البكاء فسقط ابنه عليٌّ مغشياً عليه.[٧]

ـــ وقال علي بن المديني:

كنا عند يحيى بن سعيد، فقرأ رجل سورة الدخان، فصعق يحيى، وغشي عليه.

قال أحمد بن حنبل:

---

(١) انظر السير: ٤٨/٨.

(٢) انظر السير: ٢٠٢/٧.

(٣) سورة التكاثر: آية ١.

(٤) سورة التكاثر: آية ٦.

(٥) انظر السير: ٤٤٢/٨-٤٤٨، وانظر النـزهة: ٣/٧٨٠.

(٦) سورة الحاقة: آية ٣٠.

(٧) انظر السير: ٨/ ٤٤٢.

لو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه، لدفعه يحيى -يعني الصعق-[1].

ـــ وقال أحمد بن سعيد الهمذاني:

دخل عبدالله بن وهب الحمام، فسمع قارئـاً يقـــرأ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾[2] فغشـي عليه[3].

قلت: وقد نص جماعات من السلف أن السكينة والخشوع عند سماع القرآن خير من الصعق والإغماء، وهذا هو حال النبي ﷺ وخيار المسلمين، والله أعلم.

...

الموت عند سماعه

ـــ يقال: مات جماعة سمعوا قراءة صالح المري واعظ البصرة.[4]

ـــ قال إبراهيم بن بشّار:

الآية التي مـات فيهـا علي بن الفضيل، في الأنعام: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾[5] مع هذا الموضع مات وكنت فيمن صلى عليه، رحمه الله.[6]

الشعور بالحلاوة حال قراءته

قال أحمد بن ثعلبة: سمعت سَلْمَ بن ميمون الخوّاص قال: قلت لنفسي: يا نفس: اقرئي القـرآن كأنـك سمعتيه من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة.

وقد بقي سلم إلى ما بعد سنة ثلاث عشرة ومئتين.[7]

وقال الأستاذ سيد -رحمه الله تعالى، وأعلى درجته- مبيناً أهمية تدبر كتاب الله -تعالى- والعمل بما فيه:

"الحياة في ظلال القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

---

(١) انظر السير: (يحيى القطان) ٩/١٧٥.

(٢) سورة غافر: آية ٤٧.

(٣) انظر السير: ٩/٢٢٣.

(٤) انظر السير: ٨/٤٦.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٢٧.

(٦) انظر السير: ٨/٤٤٢.

(٧) انظر السير: ٨/١٧٩.

والحمد لله لقد منَّ عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي، ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

لقد عشت أسمع الله -سبحانه- يتحدث إليّ بهذا القرآن، أنا العبد القليل الصغير، أيُّ تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟ أيُّ رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أيُّ مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟...

عشت أتملى -في ظلال القرآن- ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود، لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني، وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية، في شرق وغرب، وفي شمال وجنوب، وأسأل: كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكي، وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء؟

وعشت -في ظلال القرآن- أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله، ثم أنظر فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تُملى عليها وبين فطرتها التي فطرها الله عليها، وأقول في نفسي: أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم؟

يا حسرة على العباد!!!

وعشت -في ظلال القرآن- أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود، أكبر في حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه، إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده، وإنه في الدنيا والآخرة، لا هذه الدنيا وحدها، والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاول، والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هو مرحلة في الطريق، وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه كله، إنما هو قسط من ذلك النصيب، وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك، فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع...

أي راحة، وأي سعة وأي أنس، وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح؟

وعشت -في ظلال القرآن- أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد.

والمؤمن ذو نسب عريق، ضارب في شعاب الزمان، إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[1].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه -كما يتجلى في ظلال القرآن- مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكَرّ الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقوام، يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتشريد، ولكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقاً من نصر الله، متعلقاً بالرجاء فيه، متوقعاً في كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[1].

وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[2]، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[3]، وكل أمر لحكمة، ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[4]...

ومن ثَمّ عشت -في ظلال القرآن- هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير، عشت أرى يد الله في كل حادث وفي كل أمر، عشت في كنف الله وفي رعايته، عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[5].

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[6].

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[7].

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾[8].

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[9].

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتين ١٣-١٤.

(٢) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

(٥) سورة النمل : الآية ٦٢.

(٦) سورة الأنعام : الآية ١٨.

(٧) سورة يوسف : الآية ٢١.

(٨) سورة الأنفال : الآية ٢٤.

(٩) سورة البروج : الآية ١٦.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ ﴾[1].

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[2].

﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[3].

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ ﴾[4].

﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾[5].

إن الوجود ليس متروكاً لقوانين آلية صماء عمياء، فهناك دائماً وراء السنن الإرادة المدبرة، والمشيئة المطلقة: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ ﴾[6]، كذلك تعلمت أن يد الله تعمل، ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة؛ وأنه ليس لنا أن نستعجلها؛ ولا أن نقترح على الله شيئاً.

ومن ثم فإن المنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل -الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ومنزل هذا القرآن- ومن ثم لم يكن معتسفاً ولا عجولاً في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج، إن المدى أمامه ممتد فسيح، لا يحده عمر فرد، ولا تستحثه رغبة فانٍ، يخشى أن يَعْجلَه الموت عن تحقيق غايته البعيدة؛ كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله في جيل واحد، ويتخطون الفطرة المتزنة الخطى لأنهم لا يصبرون على الخطو المتزن! وفي الطريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر، وتسيل الدماء، وتتحطم القيم، وتضطرب الأمور، ثم يتحطمون هم في النهاية، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التي لا تصمد لها المذاهب المعتسفة! فأما الإسلام فيسير هيناً ليناً مع الفطرة، يدفعها من هنا، ويردعها من هناك، ويقوّمها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها، إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة، والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المائة أو الألف، فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك كذلك ينبت الإسلام ويمتد في بطء وعلى هِيْنَةٍ وفي طمأنينة ثم يكون دائماً ما يريده الله أن يكون...

أي طمأنينة ينشئها هذا التصور؟ وأي سكينة يفيضها على القلب؟ وأي ثقة في الحق والخير والصلاح؟ وأي قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها في الضمير؟

---

(١) سورة الطلاق : الآيتين ٢-٣.

(٢) سورة هود : الآية ٥٦.

(٣) سورة الزمر : الآية ٣٦.

(٤) سورة الحج : الآية ١٨.

(٥) سورة الرعد : الآية ٣٣.

(٦) سورة القصص : الآية ٦٨.

وانتهيت من فترة الحياة -في ظلال القرآن- إلى يقين جازم وحاسم إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا را لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفط الحياة إلا بالرجوع إلى الله.

والرجوع إلى الله -كما يتجلى في ظلال القرآن- له صورة واحدة وطريق واحد، واحد لا سواه، العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حيا والتحاكم إليه وحده في شؤونها وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، والجاه التي تعبد الهوى من دون الله:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1].

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثاً هائلاً في تاريخها، ونكبة قاصمة في حياتها، نكبة تعرف لها البشرية نظيراً في كل ما ألمّ بها من نكبات.

لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعدما فسدت الأرض، وأسِنَتِ الحياة، وتعفنت القيادات، وذاق البشرية الويلات من القيادات المتعفنة؛ و﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾[2] تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هذا التص فكان ذلك مولداً جديداً للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته، لقد أنشأ هذا القر للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيم والنظم؛ كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً، كان يعز عل خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء، نعم! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجما والعظمة والارتفاع، والبساطة واليسر، والواقعية والإيجابية، والتوازن والتناسق بحيث لا يخطر للبشرية على با لولا أن الله أراده لها، وحققه في حياتها في ظلال القرآن، ومنهج القرآن، وشريعة القرآن.

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة؛ ونُحي الإسلام عن القيادة، نُحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى، صورة من صورها الكثيرة، صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم، كما يتعاجب الأطف بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان!...

هذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة في ظلال القرآن لعل الله ينفع بها ويهدي:

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[3].[4]

---

(١) سورة القصص: الآية ٥٠.

(٢) سورة الروم: الآية ٤١.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٣٠.

(٤) "في ظلال القرآن": ١/

المبحث العاشر: تفسير القرآن العظيم

جاء في "الموسوعة الفقهية":

"كتاب الله بحره عميق، وفهمه دقيق، لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم، وعامل الله بتقواه في السر والعلانية، وأجلّه عند مواقف الشبهات، ولهذا قال العلماء: يحرم تفسير القرآن بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن، والإجماع منعقد عليه، فمن كان أهلا للتفسير، جامعاً للأدوات التي يعرف بها معناه، وغلب على ظنه المراد فسره إن كان مما يدرك بالاجتهاد، كالمعاني والأحكام الخفية والجلية والعموم والخصوص والإعراب وغير ذلك.

وإن كان مما لا يدرك بالاجتهاد، كالأمور التي طريقها النقل وتفسير الألفاظ اللغوية فلا يجوز له الكلام فيه إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله.

وأما من كان ليس من أهله لكونه غير جامع لأدواته، فحرام عليه التفسير، لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله".[1]

ومفسرو القرآن كثر أعظمهم رسول الله ﷺ فقد فسر من القرآن لصحابته قدراً يسيراً لكونهم أصحاب عربية بالسليقة، يفهمون أكثر القرآن بدون حاجة إلى تفسير.

ثم جاء من الصحابة مفسرون عظماء على رأسهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم جميعاً، ولعل أحسنهم تفسيراً هو ابن عباس -رضي الله عنهما- لدعاء النبي ﷺ له: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[2].

ثم جاء من التابعين جماعة كُثُر كان لهم حظ من التفسير كبير منهم مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وعكرمة، وهؤلاء تلاميذ عبدالله بن عباس، رضي الله عنهما.

وأما تفاسير القرآن فكثيرة جداً، ومتنوعة، فأما من يريد من عامة الناس قراءة تفسير سهل فعليه بكتاب: "التفسير الميسّر" من إعداد وزارة الشؤون الإسلامية في المملكة، أو تفسير الشيخ عبدالرحمن بن سعدي: "تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن"، أو تفسير الشيخ أبي بكر الجزائري "أيسر التفاسير"، أو كتاب "صفوة التفاسير" للشيخ محمد علي الصابوني -حفظه الله- على أن يتنبه إلى ما فيه من بعض التأويلات المرجوحة في بعض آيات الصفات.

ـــ فإن أراد القارئ الارتقاء إلى تفسير أعظم وأقوى فعليه بتفسير الإمام ابن كثير "تفسير القرآن العظيم".

---

(١) "الموسوعة الفقهية" ٣٨/٣٣.

(٢) جملة "اللهم فقهه في الدين" مخرجة في الصحيحين، أما جملة "وعلمه التأويل" فهي عند أحمد في مسنده حديث رقم ٢٩٧٧، وانظر "فتح الباري": ٢/٢٦٦-٢٦٧.

ـ وإن أراد ما هو أجود بل الأجود والأحسن فعليه بتفسير الإمام ابن جرير الطبري "جامع البيان" فقد وُصف بأنه أعظم التفاسير.

ـ ولا يُنسى تفسير الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى "في ظلال القرآن" فهو عمدة في بابه، بل هو أجود تفسير يربط الآيات بالواقع حتى يصح أن يقال إنه تفسير دعويّ.

ـ وإن أراد القارئ الاطلاع على آراء الفقهاء في آيات الأحكام فليقرأ تفسير الإمام القرطبي.

ـ وإن طلب دقائق اللغة العربية فعليه بكتاب الإمام أبي حيان الأندلسي "البحر المحيط".

ـ وإن أراد الوقوف على دقائق البلاغة فعليه بكتاب الزمخشري "الكشاف" فهو كتاب جليل في بابه لولا ما شانه من إيراد الاعتزاليات والبدع.

ـ ومن كتب التفسير الجيدة الصالحة لطبقات كثيرة من الناس : "فتح القدير" للإمام الشوكاني.

ـ ومن أقوى كتب التفسير للمتأخرين بل أرى أنه أقوى تفسير على الإطلاق أُلف في القرون المتأخرة كتاب "التحرير والتنوير" للأستاذ العلامة الطاهر بن عاشور، فهو كتاب متميز جداً، وفيه دقائق وتفصيلات وضوابط وقواعد لا تكاد توجد في أي كتاب آخر، ومقدمات الكتاب في غاية الجودة والقوة، ويتنبه على ما فيه من تأويلات في بعض آيات الصفات، والله المستعان.

المبحث الحادي عشر: خواص القرآن العظيم أو مجربات القرآن العظيم

المقصود بخواص القرآن الآيات التي لها خاصية التأثير بالشفاء وقضاء الحوائج وغير ذلك، وبعضها ورد فيه نص وبعضها لم يرد فيه نص إنما مستنده التجربة، وتسمى مجرّبات القرآن، وهذا لا بأس به إن شاء الله تعالى؛ إذ قال به جماعة من العلماء والصالحين، وفي الوقت نفسه لا يخالف شيئاً من الشرع المطهر، ولا يناقض مقاصده.

وقد ورد في هذا جملة كثيرة، فمن ذلك ما أورده الإمام السيوطي بقوله:

"أفرده بالتصنيف جماعة منهم التميميّ وحجة الإسلام الغزالي، ومن المتأخرين اليافعيّ، وغالب ما يُذكر في ذلك كان مستنده تجارب الصالحين، وها أنا أبدأ بما ورد من ذلك في الحديث، ثم ألتقط عيوناً مما ذكره السلف والصالحون:

أخرج البخاري من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "كنا في مسير لنا، فنزلنا فجاءت جارية فقالت: إن سيّد الحيّ سليم[1]، فهل معكم راقٍ؟ فقام معها رجل، فرقاه بأم القرآن فبرئ؛ فذكر للنبي ﷺ فقال: "وما كان يدريه أنها رقية!".

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ :

"إن البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان".

وأخرج عبدالله بن أحمد في زوائد المسند بسند حسن عن أبي بن كعب قال: كنت عند النبي ﷺ، فجاء أعرابيّ فقال: يا نبي الله، إن لي أخاً وبه وجع.

قال: وما وجعُه؟

قال: به لَمَم.

قال: فأتني به، فوضعه بين يديه، فعوّذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أول سورة البقرة، وهاتين الآيتين، ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[2]، وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[3]، وآية من الأعراف: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ﴾[4]، وآخر سورة المؤمنين: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾[5]، وآية من سورة الجن ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾[6]،

(١) أي لديغ، وإنما يقولون ذلك تفاؤلاً كقولهم مفازة للصحراء وبصير للأعمى.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ١١٦.

(٦) سورة الجن: الآية ٣.

وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من آخِرِ سورة الحشر، وقل هو الله أحد والمعوذتين؛ فقام الرجل كأنه لم يَشْكُ قط.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة في قصة الصدقة:

"إن الجني قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ:

"أما إنه صدقك، وهو كذوب".

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن لَيثْ، قال: "بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السِّحر، يُقرآن في إناء فيه ماء، ثم يصبّ على رأس المسحور: الآية التي في سورة يونس: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾[1] إلى قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[2].

وقوله: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[3]، إلى آخر أربع آيات.

وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ﴾[4] الآية.

وأخرج الدّارمّي وغيره من طريق عَبْدة بن أبي لبابة، عن زِرّ بن حُبَيش، قال:

"مَنْ قرأ آخر سورة الكهف لساعةٍ يريدُ أن يقومها من الليل قامها". قال عبدة: فجرّبْنّاه فوجدناه كذلك.

وأما ما لم يرد به أثر، فقد ذكر الناس من ذلك كثيراً جداً الله أعلم بصحته.

ومن لطيفه ما حكاه ابن الجوزيّ عن ابن ناصر عن شيوخه، عن ميمونة بنت شاقول البغدادية، قالت: آذانا جار لنا، فصلّيت ركعتين، وقرأت من فاتحة كل سورة آية حتى ختمت القرآن، وقلت: اللهم اكفنا أمره، ثم نمت وفتحت عيني، وإذا به قد نزل وقت السحر، فزلّت قدمه فسقط ومات.

وقال ابن القيم في حديث الرّقية بالفاتحة:

إذا ثَبت أنّ لبعض الكلام خواصّ ومنافع، فما الظن بكلام رب العالمين، ثم بالفاتحة التي لم ينزل في القرآن ولا غيرُه من الكتب مثلُها؛ لتضمّنها جميعَ ما في الكتاب، فقد اشتملت على ذكر أصول أسماء الله ومجامعها وإثبات المعاد وذكر التوحيد والافتقار إلى الرب في طلب الإعانة به والهداية منه، وذكر أفضل الدعاء، وهو طلب الهداية إلى الصّراط المستقيم المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه والاستقامة عليه، ولتضمُّنها ذكر أصناف الخلائق وقسمتهم إلى منعَم عليه لمعرفته بالحق والعمل به، ومغضوب عليه لعدوله عن الحق بعد معرفته، وضال لعدم معرفته له، مع ما تضمنته من إثبات القدر والشرع والأسماء والمعاد والتوبة وتزكية النفس وإصلاح القلب والرد على جميع أهل البدع.

---

(١) سورة يونس: الآية ٨١.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٢.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١١٨.

(٤) سورة طه: الآية ٦٩.

وحقيق بسورة هذا بعض شأنها أن يُستشْفى بها من كلّ داء! انتهى.

مسألة:

قال النووي في شرح المهذب: لو كُتب القرآن في إناء ثم غسله وسقاه المريض، فقال الحسن البصريّ ومجاهد وأبو قلابة والأوزاعي: لا بأس به، وكرهه النخعي، قال: ومقتضى مذهبنا أنه لا بأس به؛ فقد قال القاضي حسين والبغويّ وغيرهما: لو كُتب على حلوى وطعام فلا بأس بأكله[1].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"رأى جماعة من السلف أن تُكتب له الآيات من القرآن، ثم يشربها.

قال مجاهد: لا بأس أن يكتب القرآن، ويغسله، ويَسْقِيَه المريض، ومثله عن أبي قِلابة.

ويُذكر عن ابن عباس: أنه أمر أن يُكتب لامرأة تعسَّر عليها ولادها، أثر من القرآن ثم يغسل وتسقى.

وقال أيوب:

"رأيت أبا قلابة كتب كتاباً من القرآن، ثم غسله بماء، وسقاه رجلا كان به وجع"[2].

ـــ وقد أورد الشيخ عبدالله الغماري أقوال أئمة الدين من كتب التفسير وشروح الأحاديث وكتب الفقه وهي جملة كبيرة لا تدع لأحد مقالاً، ونقل كلاماً لابن القيم من كتابه "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي" نصه:

"ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء، ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأرى لها تأثيراً عجيباً فكنت أصف ذلك لمن يجد ألماً، وكان كثير منهم يبرأ سريعاً".

ثم ذكر الشيخ الغماريّ في آخر كلامه أن شرط التداوي بالقرآن أن يكون الشخص كامل الإيمان، قوي العزيمة، ثابت اليقين، صادق اللجوء إلى الله تعالى فبذلك يجد العلاج السريع والدواء الناجع والشفاء التام". انظر رسالة "كمال الإيمان في التداوي بالقرآن" للشيخ الغماريّ فهي -على صغرها- نافعة".[3]

ـــ جاء في الموسوعة الفقهية تحت عنوان "النُشرة":

اختلف العلماء على النّشْرة، وهي أن يكتب شيئاً من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيب، قيل: الرجل يؤخذ عن امرأته أيحلّ عنه ويُنْشَر؟ قال: لا بأس به، وما ينفع لم ينه عنه.

وممن صرح بالجواز الحنابلة وبعض الشافعية منهم العماد النيهي تلميذ البغوي قال: لا يجوز ابتلاع رقعة فيها آية من القرآن فلو غسلها وشرب ماءها جاز، وجزم القاضي حسين والرافعي بجواز أكل الأطعمة التي كتب عليها شيء من القرآن.

---

(١) "الاتقان في علوم القرآن": ٤/١٣٧-١٤٤.

(٢) "زاد المعاد في هدي خير العباد": ٤/١٧٠-١٧١.

(٣) انظر "مجموع فتاوى القرآن الكريم" ١/٨٦.

قـــال ابن عبدالبر: النشرة من جنس الطب فهي غسالة شيء له فضل، فهي كوضوء رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك"، و"من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل".

ومنعها الحسن وإبراهيم النخعي(١).

(١) "الموسوعة الفقهية" ٣٣/٤٠.

المبحث الثاني عشر: الاستشفاء بقراءة القرآن العظيم

صرح الفقهاء بجواز الاستشفاء بقراءة القرآن على المريض، قال ابن عابدين:

وعلى الجواز عمل الناس اليوم وبه وردت الآثار، فعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات، فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه، لأنها كانت أعظم بركة من يدي[1].

قال النووي: يستحب أن يُقرأ عند المريض بالفاتحة لقول النبي ﷺ: "وما أدراك أنها رقية"[2].

ويستحب أن يقرأ عنده: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ مع النفث في اليدين، فقد ثبت ذلك من فعل رسول الله ﷺ.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، والصحيح: أن "من" هاهنا، لبيان الجنس لا للتبعيض، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[4].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كُلُّ أحدٍ يُؤهَّل ولا يُوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداويَ به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبولٍ تام، واعتقادٍ جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبداً.

وكيف تُقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، فما من مرضٍ من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه، والحِمية منه، لمن رزقه الله فهماً في كتابه، وقد تقدَّم في أول الكلام على الطب بيانُ إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التي هي حفظُ الصحة والحمية، واستفراغ المؤذي، والاستدلال بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع.

وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر أسبابَ أدوائها وعلاجها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[5]، فمن لم يَشْفِه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله.

وقال ابن القيم أيضاً -رحمه الله- تعالى:

"أخرجا في "الصحيحين" من حديث أبي سعيد الخدري، قال:

---

(١) أخرجه مسلم: ١٧٢٣/٤.

(٢) أخرجه البخاري "فتح الباري": ١٩٨/١٠، ومسلم: ١٧٢٣/٤.

(٣) سورة الإسراء: آية ٨٢.

(٤) سورة يونس: آية ٥٧.

(٥) سورة العنكبوت: آية ٥١.

انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرةٍ سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبَوا أن يُضيِّفوهم، فلُدغ سيِّد ذلك الحي، فَسَعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط! إن سيدنا لُدِغَ، وسَعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحدٍ منكم من شيء؟

فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، ولكن استضفناكم، فلم تُضيِّفونا، فما أنا براق حتى تجْعلوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يَتْفل عليه ويقرأ: الحمد لله رب العالمين، فكأنما أُنشِطَ مِن عِقَال، فانطلق يمشي وما به قَلَبَةٌ، قال: فأوْفَوْهُم جُعْلَهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتيَ رسول الله ﷺ، فنذكُرَ له الذي كان، فننظُرَ ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال: "وما يُدْريك أنّها رُقْيةٌ؟"، ثم قال: "قَدْ أصَبْتم، اقسموا واضرِبُوا لي معكم سَهْماً".[(١)]

وقد روى ابن ماجه في "سننه" من حديث علي قال: قال رسول الله ﷺ: "خَيْرُ الدَّواءِ القُرْآنُ".[(٢)]

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة، فما الظن بكلام ربّ العالمين، الذي فَضْلُه على كل كلام كفضل الله على خلقه، الذي هو الشفاء التام، والعِصمة النافعة، والنور الهادي، والرحمة العامة، الذي لو أُنزلَ على جبل لتصدَّعَ من عظمته وجلالته.

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٣)]، و"من" ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، هذا أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[(٤)]، وكلهم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فما الظن بفاتحة الكتاب التي لم يُنزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مِثلها، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب -تعالى- ومجامعها، وهي الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وذكر الافتقار إلى الرب سبحانه في طلب الإعانة وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفرضه، وما العباد أحوج شيء إليه، وهو الهداية إلى صراط المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمرَ به، واجتناب ما نَهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، ويتضمن ذِكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى مُنْعمٍ عليه بمعرفة الحق، والعمل به، ومحبته، وإيثاره، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له، وهؤلاء أقسام الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر، والشرع، والأسماء، والصفات، والمعاد، والنبوات، وتزكية النفوس، وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير "مدارج السالكين" في شرحها.[(٥)]

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/١٧٨ في الطب: باب النفث في الرقية، ومسلم (٢٢٠١) في السلام: باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، ومعنى قَلَبَة أي رجوع إلى المرض.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٥٠١) في الطب: باب الاستشفاء بالقرآن، وفي سنده الحارث الأعور، وهو ضعيف.

(٣) سورة الإسراء: آية ٨٢.

(٤) سورة الفتح: آية ٢٩.

(٥) "زاد المعاد من هدي خير العباد": ٤/١٧٦-١٧٧.

إعجاز القرآن العظيم أمر جليل، ودلالة واضحة على أن هذا القرآن هو من عند الله -تعالى- وهو أنواع عديدة، فمن ذلك الإعجاز البلاغي، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، وإعجاز زمن النـزول، وإعجاز حجم القرآن العظيم، وأنواع عديدة أخرى بينها العلماء تبييناً لا مزيد عليه، فمن أراد الوقوف عليها ومعرفتها فليرجع إلى الكتب التي ألّفها العلماء لهذا الغرض[1].

ومن أهم أنواع الإعجاز الذي ينبغي أن تُعنى بها اليوم الإعجاز العلمي والإعجاز التشريعي، وذلك لأهميتهما البالغة في ترسيخ اليقين بإعجاز القرآن العظيم، وللدعوة إلى الله تعالى بمضمون ما فيهما، وما أحوج العالم اليوم إلى الإسلام العظيم، وهناك كثير من عقلاء العالم ومفكريه ومثقفيه يودون الاهتداء لأمر حق يصلحون به أنفسهم ومجتمعاتهم، وليس هذا في شيء سوى الإسلام، لكنهم لا يؤمنون بأنه كتاب سماوي محفوظ، فإذا اقتنعوا بالإعجاز العلمي والتشريعي -وهما النوعان الأكثر صلاحية لخطابهم- أن هذا القرآن هو كلام الله -تعالى- كان من وراء ذلك خير كثير، وذلك لأن هؤلاء الذين ندعوهم هم صفوة المجتمعات الغربية والشرقية فإذا أسلموا فلربما تبعهم في ذلك أشخاص كثيرون، والله أعلم.

وليس هذا الكلام كلاماً مرسلاً نظرياً إنما قد هدى الله بالإعجاز العلمي -خاصة- أقواماً كثيرين، ونفع بهم، وصاروا دعاة لقومهم إلى الله -تعالى- وهدى الله بهم كثيرين، ولله الحمد والمنة.

تعريف الإعجاز:

المعجزة أمرٌ خارق للعادة، مقرون بالتحدّي، سالمٌ عن المعارضة؛ وهي إما حسّيّة وإمّا عقلية، قال الإمام السيوطي، رحمه الله تعالى:

وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسِّية لبلادَتهم، وقلّة بصيرتهم[2]، وأكثر معجزات هذه الأمة عقليّة لفرط ذكائهم، وكمال أفهامِهم، ولأن هذه الشريعة لمّا كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراها ذوو البصائر، كما قال ﷺ:

"ما من الأنبياء نبي إلا أعطِيَ ما مثله آمن عليه البشر؛ وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً"، أخرجه البخاري.

قيل إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضتْ بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا مَنْ حضرها، ومعجزة القرآن مستمرّة إلى يوم القيامة، وخرقُه العادةَ في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمرّ عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبرَ به بأنه سيكون؛ يدل على صحة دعواه.

---

(١) فمن ذلك كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للإمام السيوطي، وكتاب "فكرة عن إعجاز القرآن" لمحمد حسن الحمصي، وكتاب "مباحث في إعجاز القرآن" للدكتور مصطفى مسلم وكتاب "إعجاز القرآن" للعلامة فضل عباس -رحمه الله تعالى- وغير ذلك من الكتب الكثيرة التي أُلّفت في هذا الموضوع.

(٢) هذا الكلام لا يوافق عليه الإمام على إطلاقه الذي أطلقه؛ إذ في بني إسرائيل أولياء وصالحون وطائعون من أتباع الأنبياء وهؤلاء لا يكونون أبداً بليدين ولا قليلي البصيرة، والله أعلم.

وقيل: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسِّية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون مَنْ يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهَد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهَد بعين العقل باقٍ، يشاهده كل مَن جاء بعد الأول مستمراً.(١)

قال في "فتح الباري":

ويمكِن نَظْم القولين في كلام واحدٍ؛ فإن محصلهما لا يُنافي بعضه بعضاً، ولا خلاف بين العقلاء أنّ كتاب الله تعالى معجزٌ لم يقدر واحدٌ على معارضته بعد تحدّيهم بذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾(٢)، فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾(٣)، فأخبر أن الكتاب آية من آياته، كافٍ في الدلالة، قائم مقام معجزات غيره وآيات مَنْ سواه من الأنبياء، ولّما جاء به النبي ﷺ إليهم، وكانوا أفصحَ الفصحاء، ومصاقِعَ الخطباء، وتحدّاهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾(٤).

ثم تحدّاهم بعشْرِ سُورٍ منه في قوله تعالى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾(٥).

ثم تحدّاهم بسورة في قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾(٦) الآية.

ثم كرر في قوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾(٧) الآية، فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، نادَى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ

---

(١) "الإتقان في علوم القرآن": ٤/٣.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦.

(٣) سورة العنكبوت: الآيتين ٥٠-٥١.

(٤) سورة الطور: الآية ٣٤.

(٥) سورة هود: الآية ١٣.

(٦) سورة يونس: الآية ٣٨.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٣.

وهذا ليس تكراراً؛ إنما المراد ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ أي حاوية من أوجه الإعجاز شيئاً مما حوت السورة.

﴿ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾[1]، هذا وهُم الفصحاء اللُّدّ، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نـوره، وإخفاء أمرِه، فلو كان في مقدرهم معارضته لعدلوا إليها قطعاً للحجّة، ولم يُنقَل عن أحدٍ منهم أنـه حـدّث نفسَه بشيءٍ من ذلك ولا رامه، بل عدلوا إلى العناد تارة، وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: "سِحر" وتـارة قالوا: "شعر" وتارة قالوا: "أساطير الأولين"، كل ذلك من التحيّر والانقطاع، ثم رضُوا بتحكـيم السـيف في أعناقِهم وسَبْى ذراريّهم وحُرَمهم؛ واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنف شيء وأشدّه حميّة، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه؛ لأنه كان أهون عليهم؛ كيف وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: جاء الوليـد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له؛ فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال:

يا عمّ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه؛ فإنك أتيت محمداً لتَعْرِض لما قِبَله.

قال: قد علمتْ قريش أنّي من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له.

قال: وماذا أقول! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منّي، ولا برجَزِه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجـنّ، والله ما يشبهُ الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة[2]، وإنـه لمثمـر أعلاه، مغدِق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومُك حتى تقول فيه.

قال: دعني حتى أفكّر، فلما فكر قال: هذا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يأثره عن غيره.

قال الجاحظ:

بَعَث الله محمداً ﷺ أكثرَ ما كانت العرب شاعراً وخطيباً؛ وأحكمَ ما كانت لغةً، وأشدَّ ما كانت عُدّةً، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر، وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحميّة، دون الجهل والحَيْرة، حملهم على حظّهم بالسيف، فنصب لهم الحـربَ ونصبُوا له، وقتَل مِن عِلْيتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتجّ عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهـم بهـا، وتقريعاً لعجزهم عنها تكشَّف من نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجّة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف؛ فلذلك يمكنك مالا يمكننا.

قال: فهاتوها مفترياتٍ[3]، فلم يرُم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلّفه، ولو تكلّفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد مَنْ يستجيده ويحامي عليه ويكايد فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدلّ ذلك العاقلَ على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واستحالة لغتِهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثـرة شـعرائهم،

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

وهذا التفسير من الإمام لا يوافق عليه فإن آية الإسراء مكية، وآية البقرة مدنية، والله أعلم.

(٢) الرونق والبهجة.

(٣) أي فهاتوا سوراً مثل القرآن ولو كانت مكذوبات.

وكثرة مَن هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه، وخطباء أمّته لأن سورةً واحدة وآيات يسيرة كانت أنقضَ لقوله، وأفسدَ لأمره، وأبلغَ في تكذيبه، وأسرعَ في تفريق أتباعه من بذْل النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجَز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقِصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدَوج، واللفظ المنثور، ثم يتحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم، فمحال -أكرمك الله- أن يجتمع هؤلاء كلُّهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشدُّ الخلق أنفةً، وأكثرهم مفاخرةً، والكلام سيّد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر! وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه، وهم يعرفونه، ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه! انتهى.[1]

تلخيص مهم لإعجاز القرآن وعظمة ما فيه من العلوم والفنون

القرآن العظيم حوى أصول العلوم والفنون بأحسن عبارة وأدق إشارة، وقد عَبر عن ذلك أبو الفضل المرسي تعبيراً حسناً جداً فقال:

"جمع القرآن عُلوم الأوَّلين والآخرين، بحيث لم يُحِطْ بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى؛ ثم ورث عنه معظم ذلك الساداتُ الصحابة وأعلامُهم، مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس، حتى قال: لو ضاع لي عِقَال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى؛ ثم ورث عنهم التابعون بإحسان.

ثم تقاصرت الهِمم، وفَترَت العزائم، وتضاءل أهل العلمِ، وضعُفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه، وسائر فنونه، فنوّعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه، فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعدد كلماته وآياته وسُوَره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعدد سَجَداته, والتعليم عند كل عشر آيات، إلى غير ذلك من حَصْر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة؛ من غير تعرُّض لمعانيه، ولا تدبّرٍ لما أُودع فيه، فسُمُّوا القراء.

واعتنى النحاة بالمعرَب منه والمبنيّ من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال، واللازم والمتعدّي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمةً كلمة.

---

(١) "الإتقان في علوم القرآن": ٤/٥.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدلُّ على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفيّ منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كلٌّ منهم فكرَه، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلّةً على وحدانية الله ووجوده وبقائه، وقِدَمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عمّا لا يليق به، وسمّوا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص، والإخبار، والنص، والظاهر، والمجمل، والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي، والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء، وسمّوا هذا الفنّ أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام، فأسسوا أصولَه، وفرّعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً، وسمّوه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً.

وتلمّحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودوّنوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأوّل الأشياء، وسمّوا ذلك بالتاريخ والقصص.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تُدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير؛ وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر والحساب، والعقاب والجنة والنار فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر؛ فسموا بذلك الخطباء والوعّاظ.

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير؛ مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامَيْ صاحبَي السجن، وفي رؤياه الشمسَ والقمر والنجوم ساجدة، وسمّوه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب؛ فإن عزّ عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب؛ فإن عسر فمن الحكَم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوامّ في مخاطباتهم، وعرْف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾[2].

وأخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض، ومسائل العَوْل، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار، والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك؛ فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق، والمبادئ والمقاطع والمخالص، والتلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز وغير ذلك، فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.

ونظر فيه أربابُ الإشارات وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معانٍ ودقائقُ جعلوا لها أعلام اصطلحوا عليها، مثل الفناء، والبقاء، والحضور، والخوف، والهيبة والأنس، والوحشة، والقبض، والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه.

وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل، مثل الطبّ، والجَدَل، والهيئة، والهندسة، والجبر والمقابلة، والنِّجامة وغير ذلك؛ أما الطبّ فمداره على حفظ نظام الصّحة واستحكام القوة؛ وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيّات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1]، وعرّفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[2] ، ثم زاد على طبّ الأجسام بطب القلوب وشفاء الصدور.

وأما الهيئة[3] ففي تضاعيف سُوَره، من الآيات التي ذُكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بُثّ في العالم العلويّ والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة ففي قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾[4]، الآية.

وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين، والمقدّمات، والنتائج، والقول بالموجب والمعارضة، وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم نمروذ ومحاجّته قومَه أصلٌ في ذلك عظيم ...

وأما النجامة ففي قوله: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[5]، فقد فسره بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، كالخياطة في قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾[6].

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٧.

(٢) سورة النحل: الآية ٦٩.

(٣) أي علم الفلك.

(٤) سورة المرسلات: الآية ٣٠.

(٥) سورة الأحقاف: الآية ٤.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٢٢.

والحدادة: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾[1]، ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾[2] الآية.

والبناء في آيات.

والنجارة: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[3].

والغزل: ﴿ نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾[4].

والنسج: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾[5].

والفلاحة: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾[6] الآيات.

والصيد في آيات.

والغوْص: ﴿ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾[7]، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً ﴾[8].

والصياغة: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا ﴾[9].

والزِجاجة: ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾[10]، ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾[11].

والفِخارة: ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾[12].

والمِلاحة: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ ﴾[13].

والكتابة: ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾[14].

والخَبْز: ﴿ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا ﴾[15].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٩٦.

(٢) سورة سبأ: الآية ١٠.

(٣) سورة هود: الآية ٣٧.

(٤) سورة النحل: الآية ٩٢.

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٤١.

(٦) سورة الواقعة: الآية ٦٣.

(٧) سورة ص: الآية ٣٧.

(٨) سورة النحل: الآية ١٤.

(٩) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

(١٠) سورة النمل: الآية ٤٤.

(١١) سورة النور: الآية ٣٥.

(١٢) سورة القصص: الآية ٣٨.

(١٣) سورة الكهف: الآية ٧٩.

(١٤) سورة العلق: الآية ٤.

(١٥) سورة يوسف: الآية ٣٦.

والطبخ: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[1].

والغَسْل والقِصارة: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[2]﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم القصارون.

والجزارة: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[3].

والبيع والشراء في آيات.

والصبغ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾[4]، ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾[5].

والحِجارة: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[6].

والكِيالة والوزن في آيات.

والرمي[7]: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[8].

وفيه من أسماء الآلات، وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[9].

انتهى كلام المرسي ملخصاً.[10]

---

(١) سورة هود: الآية ٦٩.

(٢) سورة المدثر: الآية ٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٥) سورة فاطر: الآية ٢٧.

(٦) سورة الشعراء: الآية ١٤٩.

(٧) سورة الأنفال: الآية ١٧.

(٨) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٩) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(١٠) "الإتقان في علوم القرآن": ٤/ ٢٦-٣١.

١. إعجاز القرآن في إشارته إلى أثر الجلد والأمعاء في الإحساس بالألـــم:

قال الله عز وجل:

أ. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1].

ب. وقال تعالى: ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾[2].

نظرة تاريخية:

كان الاعتقاد السائد، قبل عصر الكشوف العلمية، أن الجسم كله حساس للألم، ولم يكن واضحاً لأحد أن هناك نهاياتٍ عصبيةً متخصصة في الجلد لنقل الأحاسيس والألم، حتى كُشف دور النهايات العصبية في الجلد وأنه العضو الأهم لاحتوائه على العدد الأكبر منها.

وقسم العلماء الإحساس الجلدي إلى مجموعتين:

الأولى: إحساس دقيق يختص بتمييز حاسة اللمس الخفيف والفرق البسيط في الحرارة.

والثانية: إحساس أولي ويختص بالألم، ودرجة الحرارة الشديدة.

وكل إحساس منهما يعمل بنوع مختلف من الوحدات العصبية.

كما توجد خلايا مخصصة لاكتشاف التغيرات الخاصة في البيئة وتعرف بالمستقبلات وتنقسم إلى أربعة أنواع:

١. خلايا تتأثر بالبيئة الخارجية وهي مخصصة لحاسة اللمس، وتشتمل على جسيمات (مايسنر) وجسيمات (ميركَل).
٢. خلايا الشعر، ونهاية بصيلات كروز وهي مخصصة للبرودة.
٣. اسطوانات روفيني: وهي مخصصة للحرارة.
٤. نهايات الأعصاب الناقلة للإحساس بالألـــم.

وقد وجد علماء التشريح أن الجلد هو الجزء الأغنى بنهايات الأعصاب الناقلة للألم والحرارة.

(١) سورة النساء: الآية ٥٦.

(٢) سورة محمد: الآية ١٥.

التركيب الدقيق للجلد:

أثبت العلماء أن المصاب باحتراق الجلد كاملاً لا يشعر بالألم كثيراً نتيجة تلف النهايات العصبية الناقلـ للألـــم، بخلاف الحروق الأقل درجة (الدرجة الثانية) حيث يكون الألم على أشده نتيجة لإثـــارة النـــهايا العصبية المكشوفة.

كما أثبت علماء التشريح أيضاً أن الأمعاء الدقيقة خالية من الداخل من المستقبلات الحسية، بينما تو بكثافة عالية في منطقة المساريقا التي تقع بين الصفاق الجداري والطبقة الخارجية للأمعـــاء المغلفـــة بالصـــفا الحشوي، ويوجد في هذه المنطقة عدد كبير من جسيمات باسيني الناقلة للحرارة والألم، ويبلغ حجم الصـــفا الجداري ٢٠٤٠٠سم مكعب، وهو يساوي نفس حجم الجلد الخارجي للجسم.

كما أن مستقبلات الألم والوحدات الحسية الأخرى الموجودة في الأحشاء تشبه تلك الموجودة في الجلد

أوجه الإعجاز:

أ. بين الله سبحانه وتعالى أن الجلد هو محل العذاب، فربط جل وعلا بين الجلد والإحساس بالألم في الآ الأولى، وأنه حينما ينضج الجلد ويحترق ويفقد تركيبه ووظيفته يتلاشى الإحساس بألم العذاب، فيستبدل بج جديد مكتمل التركيب تام الوظيفة، تقوم فيه النهايات العصبية المتخصصة بالإحساس بالحرارة وبآلام الحريـ بأداء دورها ومهمتها؛ لتجعل هذا الإنسان الكافر بآيات الله -تعالى- يذوق عذاب الاحتراق بالنار.

ولقد كشف العلم الحديث أن النهايات العصبية المتخصصة للإحساس بالحرارة وآلام الحريق لا توجـ بكثافة إلا في الجلد، وما كان بوسع أحد من البشر قبل اختراع المجهر وتقدم علم التشريح الدقيق، أن يعـــر هذه الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً... وهكذا تتجلى المعجزة وتظهـــر آيـــات ا تعالى.

ب. هدد القرآن الكريم الكفار بالعذاب بماء حميم يقطع أمعاءهم في الآية الثانية، ثم اتضح السر في هـــ التهديد أخيراً باكتشاف أن الأمعاء لا تتأثر بالحرارة، ولكنها إذا قطعت خرج منها الماء الحمـــيم إلى منطقـ المساريقا، الغنية بمستقبلات الحرارة والألم والنهايات العصبية الناقلة لهما إلى المخ فيشعر الإنسان عندئذ بـــأعا درجات الألم.

وهكذا يتجلى الإعجاز العلمي في الإحساس بالألم، بالتوافق بين حقائق الطـــب ومعجـــزات القـــر الكريم.[1].

٢. إعجاز القرآن في وصف الجبال شكلاً ووظيفة:

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[2].

---

(١) "الإعجاز العلمي في القرآن والسنة": ٧٨-٨١.

(٢) سورة النبأ: الآيتين ٦-٧.

أقوال المفسرين:

قال ابن الجوزي: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾: للأرض لئلا تميد.

وقال الزمخشري: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾: أي أرسيناها بالجبال كما يُرسى البيت بالأوتاد.

وقال القرطبي: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾: أي لتسكن ولا تنكفئ بأهلها.

وقال أبو حيان: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾: أي ثبتنا الأرض بالجبال كما يثبت البيت بالأوتاد.

وقال الشوكاني: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾: الأوتاد جمع وتد أي جعلنا الجبال أوتاداً للأرض لتسكن ولا تتحرك كما يرسى البيت بالأوتاد.

تشير الآية إلى أن الجبال أوتاد للأرض، والوتد يكون منه جزء ظاهر على سطح الأرض، ومعظمه غائر فيها، ووظيفته التثبيت لغيره.

التحقيق العلمي:

عرّفت الموسوعة البريطانية الجبل بأنه: كتلة من الأرض تبرز فوق ما يحيط بها، وهو أعلى من التل، وجميع التعريفات الحالية للجبال تنحصر في الشكل الخارجي لهذه التضاريس، دون أدنى إشارة لامتداداتها تحت السطح، والتي ثبت أخيراً أنها تزيد على الارتفاع الظاهر بعدة مرات.

ولم تكتشف هذه الحقيقة إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما تقدم السير "جورج ايري" بنظرية مفادها أن القشرة الأرضية لا تمثل أساساً مناسباً للجبال التي تعلوها، وافترض أن القشرة الأرضية وما عليها من جبال لا تمثل إلا جزءاً طافياً على بحر من الصخور الكثيفة المرنة، وبالتالي فلابد أن يكون للجبال جذور ممتدة داخل تلك المنطقة العالية الكثافة لضمان ثباتها واستقرارها.

وقد أصبحت نظرية "ايري" حقيقة ملموسة مع تقدم المعرفة بتركيب الأرض الداخلي عن طريق القياسات الزلزالية، فقد أصبح معلوماً على وجه القطع أن للجبال جذوراً مغروسة في الأعماق ويمكن أن تصل إلى ما يعادل ١٥ مرة من ارتفاعاتها فوق سطح الأرض، وأن للجبال دوراً كبيراً في إيقاف الحركة الأفقية الفجائية لصفائح طبقة الأرض الصخرية.

هذا وقد بدأ فهم هذا الدور منذ أواخر الستينيات، فالجبال ما هي إلا قمم لكتل عظيمة من الصخور تطفو في طبقة أكثر كثافة كما تطفو جبال الجليد في الماء.

عندما خلق الله القارات بدأت في شكل قشرةٍ صلبةٍ رقيقة تطفو على مادة الصهير الصخري، فأخذت تميد وتضطرب، فخلق الله الجبال البركانية التي كانت تخرج من تحت تلك القشرة، فترمي بالصخور خارج سطح الأرض، ثم تعود منجذبةً إلى الأرض وتتراكم بعضها فوق بعض مكونة الجبال، وتضغط بأثقالها المتراكمة على الطبقة اللزجة فتغرس فيها جذراً من مادة الجبل، الذي يكون سبباً لثبات القشرة الأرضية واتزانها.

وجه الإعجاز:

في الوقت الذي كان فيه الإنسان يجهل حقيقة الجبال، والذي ظل حتى منتصف القرن التاسع عشر، جزم القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة بأن الجبال تشبه الأوتاد شكلاً ووظيفة، وتبين حديثاً صدق هذا التشبيه الدقيق، فبما أن للوتد جزءاً ظاهراً فوق سطح الأرض وجزءاً منغرساً في باطن قشرة الأرض ووظيفته تثبيت ما يتعلق به، فكذلك الجبال لها جزء ظاهر فوق قشرة الأرض وجزء منغرس في باطنها يتناسب طردياً مع ارتفاعها وعلوّها، ووظيفة الجبال هو تثبيت ألواح قشرة الأرض ومنعها من أن تميد وتضطرب بفعل الطبقة المنصهرة تحتها.

إن من ينظر إلى الجبال على سطح الأرض لا يرى لها شكلاً يشبه الوتد أو المرساة، وإنما يراها كتلاً بارزة ترتفع فوق سطح الأرض، كما عرفها الجغرافيون والجيولوجيون، ولا يمكن لأحدٍ أن يعرف شكلها الوتدي، أو الذي يشبه المرساة إلا إذا عرف جزءها الغائر في الصهير البركاني في منطقة الوشاح، وكان من المستحيل لأحدٍ من البشر أن يتصور شيئاً من ذلك حتى ظهرت نظرية السير "جورج ايري" عام ١٨٥٥م.

فالجبال أوتاد بالنسبة لسطح الأرض، فكما يختفي معظم الوتد في الأرض للتثبيت، كذلك يختفي معظم الجبل في الأرض لتثبيت قشرة الأرض، وكما تثبت السفن بمراسيها التي تغوص في ماء سائل، فكذلك تثبت قشرة الأرض بمراسيها الجبلية التي تمتد جذورها في طبقةٍ لزجةٍ نصف سائلة تطفو عليها القشرة الأرضية.

ولقد وصف القرآن وظيفة الجبال، فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[1]، في هذه الآية الكريمة إشارة إلى الطريقة التي تكونت بها الجبال البركانية بإلقاء مادتها من باطن الأرض إلى الأعلى ثم عودتها لتستقر على سطح الأرض.

ويجلي حديث الرسول ﷺ هذه الكيفية، فقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: "لما خلق الله الأرض جَعَلَتْ تَمِيدُ، فَخَلَقَ الجبال فعاد بها عليها فاستقرت .." الحديث. رواه الترمذي

فتأمل في قول النبي ﷺ المبين لكيفية خلق الجبال: "فعاد بها عليها"، أي أن خلْقها كان بخروجها من الأرض وعودتها عليها.

فمن أخبر محمداً ﷺ بهذه الحقيقة الغائبة في باطن القشرة الأرضية وما تحتها على أعماق بعيدة تصل إلى عشرات الكيلومترات، قبل معرفة الناس لها بثلاثة عشر قرناً؟

ومن أخبر محمداً ﷺ بوظيفة الجبال، وأنها تقوم بعمل الأوتاد والمراسي، وهي الحقيقة التي لم يعرفها الإنسان إلا بعد عام ١٩٦٠م؟

وهل شهد الرسول ﷺ خلق الأرض وهي تميد؟ وتكوين الجبال البركانية عن طريق الإلقاء من باطن الأرض وإعادتها عليها لتستقر الأرض؟

---

(١) سورة النحل: الآية ١٥.

ألا يكفي ذلك دليلاً على أن هذا العلم وحي أنزله الله على رسوله النبي الأمي ﷺ في الأمة الأميــة، في العصر الذي كانت تغلب عليه الخرافة والأسطورة؟

إنها البيئة العلمية الشاهدة بأن مصدر هذا القرآن هو خالق الأرض والجبال، وعالم أسـرار السـموات والأرض القائل:

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[(١)].[(٢)]

٣. **وصف الحاجز بين البحرين:**

قال تعالى:

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[(٣)].

المعاني اللغوية والتفسير:

بحر: يقال للماء إذا غلظ بعد عذوبته استبحر، وماء بحري: أي مِلْح.

وقال الأصفهاني: وقال بعضهم: البحر يقال في الأصل للماء المِلْح دون العذب.

وقال ابن منظور: وقد غلب على المِلْح حتى قَلّ في العذب.

فإذا أطلق البحر دل على البحر المِلْح ، وإذا قيد دل على ما قيد به.

والقرآن يستعمل لفظ الأنهار للدلالة على المياه العذبة الكثيرة الجارية، ويستعمل لفظ البحر ليدل علـى البحر المِلْح قال تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾[(٤)].

وكذلك يستعمل لفظ البحر في الحديث للدلالة على الماء المِلْح ، فقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال:

"يا رسول الله إنّا نركب البحر ونَحْمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ مـن مـاء البحر" قال رسول الله ﷺ: "هو الطهور ماؤه الحِلُّ مَيْتَته".

البرزخ: هو الحاجز: وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنه لا يرى.

البغي: قال ابن منظور: وأصل البغي مجاوزة الحد، وبمثله قال الجوهري والأصفهاني.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦.

(٢) "الإعجاز العلمي في القرآن والسنة": ١٨٨-١٩٢.

(٣) سورة الرحمن: الآيات ١٩-٢٢.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٣٢.

المرجان: قال ابن الجوزي: وحكى القاضي أبو يعلى أن المرجان ضرب من اللؤلؤ كالقضبان وروي عن الزجاج قوله: المرجان أبيض شديد البياض، وقال ابن مسعود: المرجان الخرز الأحمر.

ونقل أبو حيان عن بعضهم أن المرجان هو الحجر الأحمر.

وقال القرطبي: وقيل المرجان عظام اللؤلؤ وكباره، قاله علي وابن عباس -رضي الله عنهما-، واللؤلؤ صغاره، وعنهما أيضاً بالعكس أن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره وقاله الضحاك وقتادة:

وقال الألوسي وأظن أنه إن اعتبر في اللؤلؤ معنى التلألؤ واللمعان، وفي المرجان معنى المرج والاختلاط فالأوفق لذلك ما قيل ثانياً فيهما، أي أن اللؤلؤ ما عظم منه والمرجان اللؤلؤ الصغار.

والحاصل أن المرجان نوع من الزينة يكون بألوان مختلفة بيضاء وحمراء، ويكون كبيراً وصغيراً، وهو حجر يكون كالقضبان، وقد يكون صغيراً كاللؤلؤ أو الخرز، وهو في الآية غير اللؤلؤ، وحرف العطف بينهما يقتضي المغايرة.

هذا والمرجان لا يوجد إلا في البحار المِلْحة.

التحقيق العلمي:

لقد توصل علماء البحار بعد تقدم العلوم في هذا العصر إلى اكتشاف الحاجز بين البحرين، فوجدوا أن هناك برزخاً يفصل بين كل بحرين، ويتحرك بينهما ويسميه علماء البحار (الجبهة) تشبيهاً له بالجبهة التي تفصل بين جيشين، وبوجود هذا البرزخ يحافظ كل بحر على خصائصه التي قدرها الله له، ويكون مناسباً لما فيه من كائنات حية تعيش في تلك البيئة، ومع وجود هذا البرزخ فإن البحرين المتجاورين يختلطان اختلاطاً بطيئاً يجعل القدر الذي يعبر من بحر إلى بحر آخر يكتسب خصائص البحر الذي ينتقل إليه عن طريق البرزخ الذي يقوم بعملية التقليب للمياه العابرة من بحرٍ إلى بحر، ليبقى كل بحرٍ محافظاً على خصائصه.

تدرج العلم البشري لمعرفة حقائق اختلاف مياه البحار وما بينها من حواجز:

اكتشف علماء البحار أن هناك اختلافاً بين عينات مائية أخذت من البحار المختلفة في عام (١٢٨٩هـ - ١٨٧٣م) على يد البعثة العلمية البحرية الإنجليزية في رحلة (تشالنجر)، فعرف الإنسان أن المياه في البحار تختلف في تركيبها عن بعضها البعض من حيث درجة الملوحة، ودرجة الحرارة، ومقادير الكثافة، وأنواع الأحياء المائية، ولقد كان اكتشاف هذه المعلومة بعد رحلة علمية استمرت ثلاثة أعوام، جابت جميع بحار العالم، وقد جمعت الرحلة معلومات من ٣٦٢ محطة مخصصة لدراسة خصائص المحيطات، وملأت تقارير الرحلة ٢٩٥٠٠ صفحة في خمسين مجلداً استغرق إكمالها ٢٣ عاماً، وإضافة إلى كون الرحلة أحد أعظم منجزات الاستكشاف العلمي فإنها أظهرت كذلك ضآلة ما كان يعرفه الإنسان عن البحر.

بعد عام ١٩٣٣م قامت رحلة علمية أخرى أمريكية في خليج المكسيك، ونشرت مئات المحطات البحرية لدراسة خصائص البحار، فوجدت أن عدداً كبيراً من هذه المحطات تعطي معلومات موحدة عن خصائص الماء في تلك المنطقة، من حيث الملوحة والكثافة والحرارة والأحياء المائية وقابلية ذوبان الأكسجين في الماء، بينما

أعطت بقية المحطات معلومات موحدة أخرى عن مناطق أخرى، مما جعل علماء البحار يستنبطون وجود بحرين متمايزين في الصفات لا مجرد عينات محدودة كما علم من رحلة (تشالنجر).

وأقام الإنسان مئات المحطات البحرية لدراسة خصائص البحار المختلفة، فقرر العلماء أن الاختلاف في هذه الخصائص يميز مياه البحار المختلفة بعضها عن بعض، لكن لماذا لا تمتزج البحار وتتجانس رغم تأثير قوتي المد والجزر التي تحرك مياه البحار مرتين كل يوم، وتجعل البحار في حالة ذهاب وإياب، واختلاط واضطراب، إلى جانب العوامل الأخرى التي تجعل مياه البحر متحركة مضطربة على الدوام مثل الموجات السطحية والداخلية والتيارات المائية والبحرية؟

ولأول مرة يظهر الجواب على صفحات الكتب العلمية في عام ١٣٦١/١٩٤٢ فقد أسفرت الدراسات الواسعة لخصائص البحار عن اكتشاف حواجز مائية تفصل بين البحار الملتقية، وتحافظ على الخصائص المميزة لكل بحر من حيث الكثافة والملوحة، والأحياء المائية، والحرارة، وقابلية ذوبان الأوكسجين في الماء.

وبعد عام ١٩٦٢م عُرف دور الحواجز البحرية في تهذيب خصائص الكتل العابرة من بحر إلى بحر لمنع طغيان أحد البحرين على الآخر فيحدث الاختلاط بين البحار المالحة، مع محافظة كل بحر على خصائصه وحدوده المحدودة بوجود تلك الحواجز.

وأخيراً تمكن الإنسان من تصوير هذه الحواجز المتحركة المتعرجة بين البحار الملحة عن طريق تقنية خاصة بالتصوير الحراري بواسطة الأقمار الصناعية، والتي تبين أن مياه البحار وإن بدت جسماً واحداً، إلا أن هناك فروقاً كبيرة بين الكتل المائية للبحار المختلفة، تظهر بألوان مختلفة تبعاً لاختلافها في درجة الحرارة، وفي دراسة ميدانية للمقارنة بين مياه خليج عمان والخليج العربي بالأرقام والحسابات والتحليل الكيميائي تبين اختلاف كل منهما عن الآخر من الناحية الكيميائية والنباتات السائدة في كل منهما ووجود البرزخ الحاجز بينهما.

وجه الإعجاز:

لقد تطلب الوصول إلى حقيقة وجود الحواجز بين الكتل البحرية، وعملها في حفظ خصائص كل بحر قرابة مائة عام من البحث والدراسة، اشترك فيها المئات من الباحثين، واستخدم فيها الكثير من الأجهزة ووسائل البحث العلمي الدقيقة.

بينما جلّى القرآن الكريم هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرناً، قال تعالى:

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾[2].

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١٩-٢٣.

(٢) سورة النمل: الآية ٦١.

والآيات ترينا دقائق الأسرار التي كشف عنها اليوم علم البحار، فهي تصف اللقاء بين البحار الملحة، ودليل ذلك مايلي:

أولاً: لقد أطلقت الآية لفظ البحرين بدون قيد، فدل ذلك على أن البحرين مِلْحان.

ثانياً: بينت الآيات في سورة الرحمن أن البحرين يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، وقد تبين أن المرجان لا يكون إلا في البحار المِلْحة، فدل ذلك على أن الآية تتحدث عن بحرين ملحين، قال تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ أي يخرج من كل منهما.

فمن الذي كان يعلم أن البحار الملحة تتمايز فيما بينها رغم اتحادها في الأوصاف الظاهرة التي تدركها الأبصار والحواس، فكلها (ملحة، زرقاء، ذات أمواج، وفيها الأسماك وغيرها) وكيف تتمايز وهي تلتقي مع بعضها؟ والمعروف أن المياه إذا اختلطت في إناء واحد تجانست، فكيف وعوامل المزج في البحار كثيرة من مد وجزر وأمواج وتيارات وأعاصير؟

والآية تذكر اللقاء بين بحرين مِلْحين يختلف كل منهما عن الآخر؛ إذ لو كان البحران لا يختلف أحدهما عن الآخر لكانا بحراً واحداً، ولكن التفريق بينهما في اللفظ القرآني دال على اختلاف بينهما مع كونهما مِلْحين.

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي أن البحرين مختلطان، وهما في حالة ذهاب وإياب واختلاط واضطراب في منطقة الالتقاء، كما تدل اللغة على ذلك بلفظ مرج، وهذا ما كشفه العلم من وصف لحال البرزخ الذي يكون متعرجاً ومتنقلاً في الفصول المختلفة بسبب المد والجزر والرياح.

ومن يسمع هذه الآية فقط، يتصور أن امتزاجاً واختلاطاً كبيراً يحدث بين هذه البحار يفقدها خصائصها المميزة لها، ولكن العليم الخبير يقرر في الآية بعدها:

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ أي ومع حالة الاختلاط والاضطراب هذه التي توجد في البحار، فإن حاجزاً يحجز بينهما يمنع كلاً منهما أن يطغى ويتجاوز حده.

وهذا ما شاهده الإنسان بعدما تقدم في علومه وأجهزته، فقد وجد ماء ثالثاً حاجزاً بين البحرين يختلف في خصائصه عن خصائص كل منهما.

ومع وجود البرزخ فإن ماء البحرين المتجاورين يختلط ببطء شديد، ولكن دون أن يبغي أحد البحرين على الآخر بخصائص؛ لأن البرزخ منطقة تقلب فيها المياه العابرة من بحر إلى آخر لتكتسب المياه المنتقلة بالتدريج صفات البحر الذي ستدخل إليه، وتفقد صفات البحر الذي جاءت منه، وبهذا لا يبغي بحر على بحر آخر بخصائصه، مع أنهما يختلطان أثناء اللقاء، وصدق الله القائل: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾.

ولقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن الحاجز الذي يفصل بين البحرين المذكورين هو حاجز من قدرة الله لا يُرى.

وقد أشكل على بعض المفسرين الجمع بين اختلاط مياه البحار مع وجود البرزخ، إذ إن وجود البرزخ الحاجز يقتضي منع الاختلاط، وذكر الاختلاط "مرج" يقتضي عدم وجود البرزخ، وقد زال الإشكال اليوم باكتشاف أسرار البحر على حقائقها.

أوجه الإعجاز في الآيات السابقة:

مما سبق يتبين:

١. أن القرآن الكريم الذي أنزل قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة قد تضمن معلومات دقيقة عن ظواهر بحرية لم تكتشف إلا حديثاً بواسطة الأجهزة المتطورة، ومن هذه المعلومات وجود حواجز مائية بين البحار، قال تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ .

٢. يشهد التطور التاريخي في سير علوم البحار بعدم وجود معلومات دقيقة عن البحار وبخاصة قبل رحلة تشالنجر عام ١٨٧٣م فضلاً عن وقت نزول القرآن قبل ألف وأربعمائة سنة الذي نزل على نبي أمي عاش في بيئة صحراوية و لم يركب البحر.

٣. كما أن علوم البحار لم تتقدم إلا في القرنين الأخيرين وخاصة في النصف الأخير من القرن العشرين، وقبل ذلك كان البحر مجهولاً مخيفاً تكثر عنه الأساطير والخرافات، وكل ما يهتم به راكبوه هو السلامة والاهتداء إلى الطريق الصحيح أثناء رحلاتهم الطويلة، وما عرف الإنسان أن البحار الملحة بحار مختلفة إلا في الثلاثينات من هذا القرن، بعد أن أقام الدارسون آلاف المحطات البحرية لتحليل عينات من مياه البحار، وقاسوا في كل منها الفروق في درجات الحرارة، ونسبة الملوحة، ومقدار الكثافة، ومقدار ذوبان الأوكسجين في مياه البحار في كل المحطات فأدركوا بعدئذٍ أن البحار الملحة متنوعة.

٤. وما عرف الإنسان البرزخ الذي يفصل بين البحار الملحة، إلا بعد أن أقام محطات الدراسة البحرية المشار إليها، وبعد أن قضى وقتاً طويلاً في تتبع وجود هذه البرازخ المتعرجة المتحركة، والتي تتغير في موقعها الجغرافي بتغير فصول العام.

٥. وما عرف الإنسان أن مائي البحرين منفصلان عن بعضهما بالحاجز المائي، ومختلطان في نفس الوقت إلا بعد أن عكف يدرس بأجهزته وسفنه حركة المياه في مناطق الالتقاء بين البحار، وقام بتحليل تلك الكتل المائية في تلك المناطق.

٦. وما قرر الإنسان هذه القاعدة على كل البحار التي تلتقي إلا بعد استقصاء ومسح علمي واسع لهذه الظاهرة التي تحدث بين كل بحرين في كل بحار الأرض.

ـ فهل كان يملك رسول الله ﷺ تلك المحطات البحرية، وأجهزة تحليل كتل المياه، والقدرة على تتبع حركة الكتل المائية المتنوعة؟

ـ وهل قام بعملية مسح شاملة، وهو الذي لم يركب البحر قط، وعاش في زمن كانت الأساطير هي الغالبة على تفكير الإنسان وخاصة في ميدان البحار؟

ـ وهل تيسر لرسول الله ﷺ في زمنه من أبحاث وآلات ودراسات ما تيسر لعلماء البحار في عصرنا الذين اكتشفوا تلك الأسرار بالبحث والدراسة؟

ـ إن هذا العلم الذي نزل به القرآن يتضمن وصفاً لأدق الأسرار في زمن يستحيل على البشر فيه معرفتها ليدل على مصدره الإلهي، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1].

ـ كما يدل على أن الذي أنزل عليه الكتاب رسول يوحى إليه وصدق الله القائل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2] [3].

٤. أطوار خلق الجنين:

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[4].

تفيد الآية الكريمة أن الإنسان يخلق في أطوار.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾[6].

أ. طور النطفة:

المعنى اللغوي للنطفة وأقوال المفسرين:

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٣) "الإعجاز العلمي في القرآن والسنة": ٢٣٨-٢٤٥.

(٤) سورة المؤمنون: الآيات ١٢-١٤.

(٥) سورة نوح: الآية ١٤.

(٦) سورة الزمر: الآية ٦.

تطلق النطفة في اللغة على الماء القليل ولو قطرة، وفي الحديث: "وقد اغتسل ينطف رأسه ماء" رواه مسلم، وقد أطلقها الشارع على مني الرجل ومني المرأة، وفي الحديث: "من كلٍ يُخلق من نطفة الرجل ونطفة المرأة" رواه مسلم، قال الألوسي: والحق أن النطفة كما يعبر بها عن مني الرجل يعبر بها عن المني مطلقاً.

كما أطلقها الشارع أيضاً على امتزاج نطفتيّ الرجل والمرأة وسماها النطفة الأمشاج في قوله تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[1].

وقد عرف المفسرون النطفة الأمشاج بأنها: النطفة المختلطة التي اختلط وامتزج فيها ماء الرجل بماء المرأة.

وتهاجر البييضة الملقحة بتطوراتها العديدة عبر قناة الرحم إلى تجويفه وتأخذ شكل قطرة الماء، ولها خاصية الحركة الانسيابية كقطرات الماء تماماً.

وينتهي هذا الطور بتعلق الكيسة الأريمية ببطانة الرحم في نهاية الأسبوع الأول من التلقيح؛ وهي الصورة الأخيرة للنطفة الأمشاج والتي ما زالت تحافظ على شكل قطرة الماء بالرغم من تضاعف خلاياها أضعافاً مضاعفة.

وحينما يفقد هذا الطور حركته الانسيابية ويتعلق ببطانة الرحم، يتحول إلى طور جديد هو طور العلقة.

ب. طور العلقة:

المعنى اللغوي للعلقة وأقوال المفسرين:

كلمة علقة كما يقول المفسرون: مشتقة من علق وهو الالتصاق والتعلق بشيء ما.

وهذا يتوافق مع تعلق الجنين ببطانة الرحم خلال الأسبوع الثاني.

كما يطلق العَلَقُ على الدم عامة، وعلى الدم شديد الحمرة، وعلى الدم الجامد، وهذا يتوافق مع شكل الجنين في هذا الطور، حينما تتكون لديه الأوعية الدموية المقفلة والممتلئة بالدماء خلال الأسبوع الثالث.

كما تطلق على دودة العلقة: وهي دودة تعيش في البرك، وتتغذى على دماء الحيوانات التي تلتصق بها، والجمع علق، ولهذا الطور عدة أشكال، من بدئه وحتى نهايته.

وقد وصف ابن كثير هذا الطور، فقال: أي صيَّرْنا النطفة علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة.

والجنين في نهاية هذا الطور كما يقول المفسرون: يكون على شكل علقة مستطيلة، لونها شديد الحمرة لما فيها من دم متجمد، وهذا يتوافق مع الشكل الأخير لهذا الطور، حيث يأخذ الجنين شكل الدودة التي تمتص الدماء وتعيش في الماء، ويشترك الجنين معها في قوة تعلقه بعائله للحصول على غذائه من امتصاص دمائه.

والمدة الزمنية لهذا الطور هي من بداية الأسبوع الثاني وحتى نهاية الأسبوع الثالث من التلقيح.

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٢.

جـ. طور المضغة:

المعنى اللغوي للمضغة وأقوال المفسرين:

قال ابن كثير: مضغة: قطعة كالبَضْعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط، قدر ما يمضُغ الماضغ، وتتكون من العلقة.

وقال الألوسي: قطعة لحم[1] بقدر ما يُمضغ، لا استبانة ولا تمايز فيها.

وهذا ما يتوافق مع الجنين في أول هذا الطور، حيث يتراوح حجمه من حبة القمح إلى حجم حبة الفول (٣-٥مم) وهو القدر الذي يمكن مضغه.

ويبدو سطحه من الخارج وقد ظهرت عليه نتوءات الكتل البدنية والرأس والصدر والبطن، كما تتكون معظم براعم أعضاءه الداخلية، مع احتفاظه بالشكل الخارجي المشابه لمادة ممضوغة، ويصدق عليه أنه مخلق وغير مخلق.

وها هو الوصف القرآني يقرر هذه الحقيقة: قال تعالى: ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾[2].

قال الألوسي: والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً، لذلك فالوصفان: ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ لابد أن يكونا لازمين للمضغة.

قال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ صفة مُضْغَةٍ وأن هذا تطور من تطورات المضغة، وإذ قد جُعلت المضغة من مبادئ الخلق تعيَّن أن كلا الوصفين لازم للمضغة.

ويؤكد ذلك الرازي بقوله: يجب أن تحمل ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ على من سيصير إنساناً لقوله تعالى في أول الآية: ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم ﴾[3].

وفي هذه النصوص دلالة على أن التخليق يبدأ في هذا الطور، حيث يبدأ القلب في النبض وينتقل الجنين إلى طور جديد هو طور المضغة، وقد وصف المفسرون هذا الطور وصفاً دقيقاً، وهو ما أكدته حقائق علم الأجنة في أن التخليق يبدأ من أول الأسبوع الرابع، وبالتحديد في اليوم الثاني والعشرين، وينتهي هذا الطور قبيل نهاية الأسبوع السادس حيث يبدأ الطور التالي في التخليق وهو طور العظام.

د. طور العظام:

يتشكل الجنين في هذا الطور على هيئة مخصوصة، وتزال عنه صورة المضغة ليكتسب صورة جديدة؛ حيث يتخلق هيكله العظمي الغضروفي، وتظهر أولى مراكز التعظم في الهيكل الغضروفي في بداية الأسبوع السابع، فيتصلب البدن، وتتميز الرأس من الجذع، وتظهر الأطراف.

---

(١) هي كتلة من الخلايا وليس لحماً، ولكن كما قال ابن كثير: كالبضعة من اللحم.

(٢) سورة الحج: الآية ٥.

(٣) سورة الحج: الآية ٥.

قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾[1] يعني شكّلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

وقال الألوسي: وذلك التصيير بالتصليب بما يراد جعله عظاماً من المضغة، وهذا تصيير بحسب الوصف؛ وحقيقته إزالة الصورة الأولى عن المادة وإفاضة صورة أخرى عليها.

هـ. طور كسوة العظام:

ثم يبدأ الجنين الطور الأخير من التخليق وهو كساء العظم باللحم، وفي هذا الطور يزداد تشكل الجنين على هيئة أخص.

أقوال المفسرين في وصف هذا الطور:

قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾[2] أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه.

وقال الشوكاني: أي أنبت الله سبحانه على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه، وكذا قال غيرهم.

وهذا يتوافق مع ما ثبت في علم الأجنة من أن العظام تخلق أولاً، ثم تكسى بالعضلات في نهاية الأسبوع السابع وخلال الأسبوع الثامن من تلقيح البويضة، وبهذا تنتهي مرحلة التخليق والتي يسميها علماء الأجنة بالمرحلة الجنينية.

هذا وقد أكد علم الفحص بأجهزة الموجات فوق الصوتية، أن جميع التركيبات الخارجية والداخلية الموجودة في الشخص البالغ تتخلق من الأسبوع الرابع وحتى الأسبوع الثامن من عمر الجنين، كما يمكن أن ترى جميع أعضاء الجنين بهذه الأجهزة خلال الأشهر الثلاثة الأولى.

و. مرحلة النشأة خلقاً آخر:

يبدأ الجنين بعد الأسبوع الثامن مرحلة أخرى مختلفة يسميها علماء الأجنة بالمرحلة الحميلية، ويسميها القرآن الكريم: مرحلة النشأة خلقاً آخر: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾[3].

ولذلك يعتبر طور كساء العظام باللحم الحد الفاصل بين المرحلة الجنينية والحميلية.

وتبدأ مرحلة النشأة من الأسبوع التاسع، حيث ينمو الجنين ببطء، إلى الأسبوع الثاني عشر، ثم ينمو بعد ذلك بسرعة كبيرة، وتستمر هذه المرحلة حتى نهاية الحمل.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

خصائص مرحلة النشأة:

تختص هذه المرحلة بعدة خصائص أهمها:

١. تطور ونمو أعضاء وأجهزة الجنين، وذلك بتهيئتها للقيام بوظائفها.

٢. تختص بنفخ الروح فيها عند جمهور المفسرين.

قال ابن كثير: ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب.

وقال الألوسي: أي مبايناً للخلق الأول مباينة ما أبعدها، حيث جُعل حيواناً ناطقاً سميعاً بصيراً.

٣. حدوث التغيرات في مقاييس الجسم؛ فيصغر حجم الرأس بعدما كان كبيراً، وتطول الساقان بعدما كانتا قصيرتين، ويأخذ البدن حجمه الطبيعي.

٤. يكتسب الجنين صورته الشخصية، بعدما تتعدل مقاييس الوجه.

وهذه الخصائص هي عين ما أشارت إليه الآيات في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[1] وكلمة سَوَّاك تعني جعل الشيء مستوياً ومستقيماً مهيئاً لأداء شيء محدد بعد تمام خلقه.

والتعديل في اللغة تعني التقويم وتعني كلمة ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾: غيّر شكلك وهيئتك لتكون شيئاً محدداً، وكلمة "صورة" تعني هيئة أو شكل.

وما ذكره القرآن الكريم هو ما قررته حقائق علم الأجنة؛ فالتسوية تبدأ عقب عملية الخلق في المرحلة الحميلية أي بعد الأسبوع الثامن، حيث يستقيم الجنين وتتهيأ أعضاؤه لأداء وظائفها، ويتخذ الجنين المقاييس الطبيعية لبدنه "التعديل".

وتتخذ ملامح الوجه المقاييس البشرية المألوفة، ويكتسب الجنين الصورة الشخصية له "التصوير".

إنك لترى التطابق الدقيق بين مراحل التخليق وبين كلام الخالق، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2]، أليس هذا دليلاً واضحاً على أن القرآن الكريم هو كلام الخالق العظيم.

وجه الإعجاز:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[3].

---

(١) سورة الانفطار: الآيتين ٧-٨.

(٢) سورة الملك: الآية ١٤.

(٣) سورة المؤمنون: الآيات ١٢-١٤.

أن الإنسان يُخلق في أطوار، يؤكد ذلك ما سبق أن شرحناه من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[1] فبينما كان الناس في زمن النبوة وبعده بأكثر من عشرة قرون يعتقدون أن الإنسان يخلق كقزم كامل مـن دم الحيض، أو داخل البويضة أو في رأس الحيوان المنوي، بعد اكتشافهما في القرن السابع عشر والثامن عشر.

إلى أن ظهر العالم "سبالا نزالى" في نهاية القرن الثامن عشر ١٧٧٥م، ليبطل كل هذه النظريات ويثبت أن الإنسان يخلق من كلٍ من الحيوان المنوي والبويضة، وذلك عين ما أخبر به النبي ﷺ في إجابته اليهودي الـذي سأله ممّ يخلق الإنسان؟ فأجابه: "من كلٍ يخلق: من نطفة الرجل ونطفة المرأة".

أليس هذا دليلاً على أن محمداً ﷺ لا ينطق إلا بوحي من الخالق العظيم.[2]

(١) سورة نوح: الآية ١٤.

(٢) "الإعجاز العلمي في القرآن والسنة": ٥١-٦٧ .

المبحث الرابع عشر: مفردات القرآن العظيم

المقصود بهذا العنوان الآيات الواردة في القرآن التي يقال في كل واحدة منها هي أعظم آية في كذا، أو أقوى آية في كذا، أو أحكم آية في كذا الخ...، وهو فصل جليل جيد.

قال الإمام السيوطي، رحمه الله تعالى:

أخرج السِّلَفيّ في المختار من الطيوريات، عن الشعبيّ، قال: لقِيَ عمرُ بن الخطاب ركباً في سفر، فيهم ابن مسعود، فأمر رجلاً يناديهم: من أين القوم؟ قالوا: أقبلنا من الفَجّ العميق، نريد البيت العتيق.

فقال عمر: إن فيهم لعالماً، وأمر رجلاً أن يناديَهم: أيّ القرآن أعظم؟

فأجابه عبدالله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[1].

قال: نادِهم: أيُّ القرآن أحكم؟

فقال ابن مسعود: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[2].

قال: نادهم: أيّ القرآن أجمع؟

فقال: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾[3].

فقال نادهم: أيُّ القرآن أحزن؟

فقال: ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾[4].

فقال نادِهم: أيّ القرآن أرجَى؟

فقال ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾[5] الآية.

فقال: أفيكم ابنُ مسعود؟ قالوا: نعم. أخرجه عبدالرزاق في تفسيره بنحوه.

ــ وأخرج عبدالرزاق أيضاً، عن ابن مسعود، قال: أعدلُ آية في القرآن:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾، وأحكم آية ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴾[6] إلى آخرها.

ــ وأخرج الحاكم عنه، قال: إن أجمع آية في القرآن للخير والشر:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٣) سورة الزلزلة: الآيتين ٧-٨.

(٤) سورة النساء: الآية ١١٣.

(٥) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٦) سورة الزلزلة: الآية ٧.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[1].

وأخرج عنه، قال: ما في القرآن آيةٌ أعظمُ فرجاً من آية في سورة الغُرَف:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[2]الآية.

وما في القرآن آيةٌ أكثر تفويضاً من آية في سورة النساء القُصرى:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[3]الآية.

ـــ وأخرج أبو ذرّ الهرويّ في فضائل القرآن من طريق يحيى بن يَعْمُر، عن ابن مسعود، قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أعظم آية في القرآن: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[4].

وأعدل آية في القرآن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[5] إلى آخرها.

وأخوف آية في القرآن:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[6].

وأرْجى آية في القرآن:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾[7] إلى آخرها.

ـــ ويلحق بهذا ما أخرجه ابن المنذِر، عن ابن مسعود، أنهُ ذكِر عنده بنو إسرائيل، وما فضّلهم الله بـــه، فقال: كان بنو إسرائيل إذا أذنب أحدُهم ذنباً أصبح وقد كتبت كفارته على أُسْكُفّة بابه، وجُعِلـــت كفـــارة ذنوبكم قولاً تقولونه؛ تستغفرون الله فيغفر لكم، والذي نفسي بيده لقد أعطانا الله آية لَهِيَ أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[8] الآية.

ـــ وما أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة عن ابن عباس قال:

ثماني آياتٍ نزلت في سورة النساء، هنّ خير لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس وغربت:

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥٣، وتسمى سورة الغرف لورود الغرف فيها في قوله تعالى ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٣، وتسمى سورة النساء الصغرى والقُصْرى.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٥) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٦) سورة الزلزلة: الآيتين ٧-٨.

(٧) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٨) سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

أولهن: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾[1].

والثانية: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾[2].

والثالثة: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[3] الآية.

والرابعة: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾[4] الآية.

والخامسة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[5] الآية.

والسادسة: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾[6] الآية.

والسابعة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾[7] الآية.

والثامنة: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾[8] الآية.

ــ وما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: أيُّ آية أرخصُ[9] في كتاب الله؟

قال: قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾[10].

ــ وما أخرجه ابن راهويه في مسنده، أنبأنا أبو عمر العَقَديّ، أنبأنا عبدالجليل بن عطيّة، عن محمد بن المنتشر، قال: قال رجل لعمر بن الخطاب: إنّي لأعرف أشدَّ آية في كتاب الله تعالى، فأهوى عمرُ فضربه بالدِّرَّة[11]، وقال: مالك نقّبت عنها حتى علمتها! ما هي؟ قال: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[12]، فما منا أحد يعمل سوءاً إلا جُزِي به، فقال عمر: لبثنا حين نزلت ما ينفعنا طعام ولا شراب حتى أنزل الله بعد ذلك ورخَّص: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[13].

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٦.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٨.

(٤) سورة النساء: الآية ٣١.

(٥) سورة النساء: الآية ٤٠.

(٦) سورة النساء: الآية ١١٠.

(٧) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٨) سورة النساء: الآية ١٥٢.

(٩) أي أعظم آية فيها رخصة للمؤمنين، أي تفريج عنهم.

(١٠) سورة فصلت: الآية ٣٠.

(١١) عصا قصيرة.

(١٢) سورة النساء: الآية ١٢٣.

(١٣) سورة النساء: الآية ١١٠.

ــ وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن، قال: سألت أبا بَرْزَةَ الأسلميّ عن أشدّ آية في كتاب الله تعالى على أهل النار، فقال: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾(1).

وفي صحيح البخاري عن سفيان، قال: ما في القرآن آية أشد عليّ من:

﴿ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(2).

ــ وأخرج ابن جرير عن ابن عباس، قال: "ما في القرآن أشدّ توبيخاً من هذه الآية:

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾(3) الآية.

ــ وأخرج ابن المبارك في كتاب الزهد عن الضّحاك بن مزاحم، قرأ في قول الله:

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ قال: ما لله ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

ــ وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن، قال: ما أنزلت على النبي ﷺ آية كانت أشدّ عليه من قوله:

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾(4) الآية.

ــ وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين: لم يكن شيء عندهم أخوفَ من هذه الآية:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾(5).

ــ وعن أبي حنيفة: أخوف آية في القرآن: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾(6).

ــ وقال غيره: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾(7)، ولهذا قال بعضهم:

لو سمعتُ هذه الكلمة من خَفِير الحارة لم أَنَمْ.

ــ وفي النوادر لأبي زيد، قال مالك: أشدّ آية على أهل الأهواء قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾(8) الآية؛ فتأوّلها على أهل الأهواء. انتهى.

ــ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية، قال: آيتان في كتاب الله ما أشدهما على مَنْ يجادل فيه:

---

(1) سورة النبأ: الآية ٣٠.

(2) سورة المائدة: الآية ٦٨.

(3) سورة المائدة: الآية ٦٣.

(4) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(5) سورة البقرة: الآية ٧.

(6) سورة آل عمران: الآية ١٣١.

(7) سورة الرحمن: الآية ٣١.

(8) سورة آل عمران: الآية ١٠٦.

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[1]،﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾[2].

ــ وقال الكرماني: ذكر المفسرون أن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ ﴾[3] الآية، من أشْكَلِ آية في القرآن حكماً ومعنى وإعراباً.

ــ وقال غيره: قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ ﴾[4] الآية جمعت أصول أحكام الشريعة كلّها: الأمر والنهي والإباحة والخبر.

ــ وقال الكرمانيّ في العجائب في قوله تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾[5]، قيل: هو قصة يوسف، وسمّاها "أحسن القصص" لاشتمالها على ذكر حاسدٍ ومحسودٍ، ومالك ومملوك، وشاهدٍ ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وسجن وخلاص، وخصب وجدب، وغيرها ممّا يعجز عن بيانها طوق الخلق.

ــ وقال: ذكر أبو عبيدة عن رُؤبة: ما في القرآن أعرب من قوله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾[6].

ــ وقال بعضهم: أطول سورة في القرآن البقرة، وأقصرها الكوثر، وأطول آية فيه آية الدَّين، وأقصر آية فيه ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾، ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ﴾، وأطول كلمة فيه رسماً ﴿ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ ﴾[7].

ــ وفي القرآن آيتان جمعت كل منهما حروف المعجم:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ ﴾[8]الآية، ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾[9]الآية.

ــ وليس فيه حاء بعد حاء بلا حاجز إلا في موضعين:

﴿ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ ﴾[10]،﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ ﴾[11].

ولا كافان كذلك إلا: ﴿ مَّنَٰسِكَكُمۡ ﴾[12]،﴿ مَا سَلَكَكُمۡ ﴾[13].

---

(1) سورة غافر: الآية ٤.

(2) سورة البقرة: الآية ١٧٦.

(3) سورة المائدة: الآية ١٠٦.

(4) سورة الأعراف: الآية ٣١.

(5) سورة يوسف: الآية ٣.

(6) سورة الحجر: الآية ٩٤.

(7) سورة الحجر: الآية ٢٢.

(8) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

(9) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(10) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.

(11) سورة الكهف: الآية ٦٠.

(12) سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

(13) سورة المدثر: الآية ٤٢.

ولا غينان كذلك إلا ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾[1].

ولا آية فيها ثلاثة وعشرون كافاً إلا آية الدَّيْن.

ولا آيتان فيهما ثلاثة عشرة وقفاً إلا آيتا المواريث.

ولا سورة ثلاث آيات فيها عشر واوات إلا والعصر إلى آخرها.

ولا سورة إحدى وخمسون آية، فيها اثنان وخمسون وقفاً إلا سورة الرحمن.

ذكر أكثر ذلك ابن خالويه.

وقال أبو عبدالله الخبازيّ المقرئ:

أول ما وردتُ على السلطان محمود بن ملكشاه سألني عن آية أولها غين، فقلت: ثلاثة: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾[2] وآيتان بخلف: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾[3]، ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ ﴾[4].

ونقلت من خط شيخ الإسلام ابن حجر: في القرآن أربع شدَّات متوالية في قوله:

﴿ نَسِيًّا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[5].

﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ ﴾[6].

﴿ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[7].

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ﴾[8].[9]

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٢) سورة غافر: الآية ٣.

(٣) سورة الروم: الآية ٢.

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٧.

(٥) سورة مريم: الآيتين ٦٤-٦٥.

(٦) سورة النور: الآية ٤٠.

(٧) سورة يس: الآية ٥٨.

(٨) سورة الملك: الآية ٥.

(٩) "الاتقان في علوم القرآن": ١٢٨/٤-١٣٦.

اختُلف في كيفية إنزاله من اللوح المحفوظ على ثلاثـــة أقوال:

أَحَدُها، وهو الأصح الأشهر: أنه نـــزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملةً واحدة، ثم نـــزل بعـــد ذلـــك منجّماً، في ثلاث وعشرين سنة حسَب الوقائع وحسَب الحاجة، قال ابن عباس رضي الله عنهما:

"أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينــزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض".[1]

وقال أيضاً ﷺ: "فُصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينـــزل به على النبي ﷺ".[2]

قال الأستاذ سيد، رحمه الله تعالى:

"لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة ويقيم لها نظاماً فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل، ومن ثَمّ فقد جاء هذا القرآن مفرقاً وفق الحاجـــات الواقعيـــة لتلك الأمة، ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى، والتربية تتم في الزمن الطويل، وبالتجربة العملية في الزمن الطويل، جاء ليكون منهجاً عملياً يتحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الإعداد لا فقهاً نظريـــاً ولا فكـــرة تجريدية تُعرض للقراءة والاستمتاع الذهني، وتلك حكمة نزوله متفرقاً لا كتاباً كاملاً منذ اللحظة الأولى.

ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى، تلقوه توجيهاً يُطبق في واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أو نهي، وكلما تلقوا منه أدباً أو فريضة، ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخـــذون الشـــعر والأدب، ولا تسلية ولا تلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير فتكيفوا به في حياتهم اليومية، تكيفوا به في مشاعرهم وضمائرهم، وفي سلوكهم ونشاطهم، وفي بيوتهم ومعاشهم فكان منهجَ حياتهم الذي طرحوا كل ما عداه مما ورثوه ومما عرفوه ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن..."[3].

إذن هناك بضعة أسباب لنـــزول القرآن مفرقاً متتابعاً ولم ينـــزل جملة واحدة، وهي:

١. تيسير حفظه وتعلمه.

٢. تيسير فهمه وتدبره.

٣. تثبيت النبي ﷺ وصحبه، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[4].[5]

---

(١) ومعنى مُنَجّماً أي على دفعات.

(٢) أخرجه الحاكم في "المستدرك" وهو صحيح.

(٣) "في ظلال القرآن": ٢٢٥٣/٤.

(٤) سورة الفرقان: آية ٣٢.

(٥) المصدر السابق. ورواه النسائي أيضاً، وهو صحيح.

٤. التدرج في تربية الأمة.

٥. التدرج في الأحكام ليحسن المسلمون تقبلها.

٦. الإجابة على أسئلة المسلمين والمشركين وأهل الكتاب.

٧. إظهار حكمة الله في النسخ والتخصيص.

اختلف في أول ما نـزل من القـرآن على أقوال، والصحيح هو: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[١]، فقد روى الشيخان وغيرهما عن عائشة، قالت:

"أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء، فيتحنّث فيه الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة -رضي الله عنها- فتزوّده لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملَك فيه، فقال: اقرأ.

قال رسول الله ﷺ : فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني[٢] حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية، حتى بلغ مني، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[٣]، حتى بلغ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٤]، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادِره..."[٥] الحديث.

وأخرج الحاكم في المستدرك، والبيهقي في الدلائل وصححاه عن عائشة، قالت: أول سورة نزلت من القرآن "اقرأ باسم ربك".

وأخرج الطبراني في الكبير بسندٍ على شرط الصحيح، عن أبي رجاء العطارديّ، قال: كان أبو موسى يُقرئنا فيجلسنا حِلَقاً، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[٦]، قال: هذه أول سورة أنزلت على محمد ﷺ[٧].

وقيل في أول ما نـزل أقوال غير هذه لكني أعرضت عن ذكرها لوضوح الدليل في أن أول ما نـزل مطلقاً هو سورة العلق، والله أعلم.

ـــ وأول سورة نزلت كاملة هي سورة الفاتحة، كما ذكر الزركشي رحمه الله تعالى في كتابه "البرهان في علوم القرآن".[٨]

---

(١) سورة العلق: الآية ١.

(٢) الغط: العصر الشديد.

(٣) سورة العلق: الآية ١.

(٤) سورة العلق: الآية ٥.

(٥) البادرة من الإنسان وغيره: التي بين المنكب والعنق.

(٦) سورة العلق: الآية ١.

(٧) "الاتقان في علوم القرآن": ٦٨/١.

(٨) "الوجيز في علوم الكتاب العزيز": ٦٤.

ـ وقد ذكر أحد الباحثين أن أول ما نـــزل في شأن الدعوة إلى الله تعالى هو صدر سورة المدثر.[1]

آخر ما نَزَل:

عن ابن عبـــاس قال: آخـــر شيء نَـــزَل من القرآن: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ ﴾[2]، الآية.

عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[3]، الآية، وكـــان بـــين نزولها وبين موت النبي ﷺ أحد وثمانون يوماً.[4]

وقيل في آخر ما نـــزل أقوال كثيرة أمثلها هو هذا، والله أعلم.

وقيل إن آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر.[5]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨١.

(٤) "الاتقان في علوم القرآن": ١/٧٧.

(٥) "الوجيز في علوم الكتاب العزيز": ٦٤.

قال الجعبري:

حدّ السورة قرآن يشتمل على آيٍ، ذي فاتحة وخاتمة، وأقلُّها ثلاث آيات.

وقد ثبت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار.

وانعقد إجماع الأئمة على أن عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، التي جمعها عثمان ﷺ وكتب بها المصاحف، وبعث كل مصحف إلى مدينة من مدن الإسلام الكبرى[1].

وسور القرآن تنقسم إلى طوال ووسطى وقصار.

أما الطوال فسبع وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والتوبة.

وأما السور الوسطى فتنقسم إلى سور ذوات مائة آية فأكثر وإلى ما دون ذلك.

وأطول سورة هي سورة البقرة.

وأقصر سورة هي سورة الكوثر.

وترتيب سور القرآن إنما هو من النبي ﷺ بتعليم جبريل -عليه السلام- له، وقيل هو باجتهاد الصحابة، وهذا القول -عندي- ضعيف، والله أعلم.

أسماء السور:

وقال السيوطي:

قد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير، وقد يكون لها اسمان فأكثر؛ من ذلك "الفاتحة":

وقد وقفت لها على نيّفٍ وعشرين اسماً، وذلك يدلّ على شرفها.[2]

ــ وبراءة: تسمى أيضاً التوبة لقوله تعالى فيها: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾[3] الآية.

والفاضحة، أخرج البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة قال: التوبة؟! بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل: "ومنهم، ومنهم ..." حتى ظننا ألاَّ يبقى أحد منا إلا ذُكِر فيها.

ــ الإسراء: تسمى أيضاً سورة "سبحان"، وسورة بني إسرائيل.

ــ فاطر: تسمّى سورة الملائكة.

ــ غافر: تسمى سورة الطَّوْل، والمؤمن، لقوله تعالى فيها: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴾[4].

ــ سورة محمد ﷺ: تسمّى القتال.

---

(١) "الموسوعة الفقهية" ٣٣/٣٩.

(٢) "الاتقان في علوم القرآن": ١/١٥٠-١٥١.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٧.

(٤) سورة غافر: الآية ٢٨.

ـــ الحشر:

أخرج البخاريّ عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل: سورة بني النّضير.

قال ابن حجر: كأنّه كره تسميتَها بالحشر، لئلا يظن أن المراد يوم القيامة، وإنما المراد به هنا إخراج بني النضير.

ـــ الممتحنة:

قال ابن حجر: المشهور في هذه التسمية أنها بفتح الحاء وقد تكسر، فعلى الأول هو صفة المرأة التي نزلت السورة بسببها، وعلى الثاني هي صفة السورة كما قيل لبراءة: الفاضحة، وفي "جمال القراء"[١]: تسمى أيضاً سورة الامتحان وسورة المودّة.

ـــ الطلاق: تسمّى سورة النساء القُصْرى[٢]، كذا سماها ابن مسعود، أخرجه البخاري وغيره.

ـــ تبارك: تسمّى سورة الملك.

ـــ عم: يقال لها النبأ.

ـــ أرأيت: تُسمَّى سورة الدين، وسورة الماعون.

ـــ وسورة تبت: تسمى سورة المسد.

ـــ والفلق والناس: يقال لهما المعوِّذتان.[٣]

أما عدد آيات القرآن العظيم فهو مختلف فيه؛ وذلك باعتبار النظر في مواطن الوقوف المنقولة عن النبي ﷺ، وقد نقل الإمام السيوطي -رحمه الله تعالى- أن "سبب اختلاف السلف في عدد الآي أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف[٤]، فإذا عُلم محلها وصل للتمام[٥] فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة".[٦]

وقال الإمام الداني:

"أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك، فمنهم من لم يَزِدْ، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات[٧]، وقيل: وأربع عشرة، وقيل: وتسع عشرة، وقيل: وخمس وعشرون، وقيل: وست وثلاثون".[٨]

ـــ وهناك عدد منسوب لأهل مكة، وعدد آخر لأهل المدينة، وعدد للكوفة، وعدد لأهل الشام، وعدد لأهل البصرة.[٩]

---

(١) هو كتاب لعلم الدين السخاوي.

(٢) وتسمى سورة النساء الصُغرى.

(٣) انظر "الاتقان في علوم القرآن": ١/١٥٠-١٥٩.

(٤) أي لمراعاة ما نــزل به الوحي من تحديد رؤوس الآي.

(٥) أي لتمام المعنى.

(٦) المصدر السابق: ١/٦٧، ومعنى الفاصلة أي رأس الآية.

(٧) أي ستة آلاف ومائتان وأربع آيات.

(٨) المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق.

المبحث السابع عشر: جَمْعُ القُرآن العظيم

جُمع القرآن ثلاث مرات:

١. مرةً زمن النبي ﷺ حيث كان القرآن يُكتب بين يديه وبأمره ﷺ لكن كان يكتب على الجلود والعظام العظيمة وجريد النخل، والمراد بهذا الجمع حفظ القرآن العظيم بكتابته زمن الوحي وبين يديه ﷺ وهذا الجمع إنما هو أمر إضافي تأكيدي، وإلا فالقرآن مجموعٌ في صدر النبي ﷺ وعدد من صحابته ﷺ، وبمجموعهم كان القرآن محفوظاً في صدورهم قطعاً فهذه الأمة حفظها في صدورها ميزة لها من بين الأمم، ولله الحمد.

والمقصود بالجمع -هاهنا- هو جمعه كله مكتوباً في العظام وجريد النخل ونحو ذلك وإن لم يكن مجموعاً كله في مكان واحد بل كان مفرقاً عند الصحابة ﷺ وإنما الذي جمعه في مصحف واحد هو الصديق الأكبر ﷺ زمن خلافته المباركة.

٢. وجمع مرة ثانية زمن الصديق ﷺ وكان هذا الجمع جامعاً لكل ما سمعه الصحابة من النبي ﷺ سواء قبل العرضة الأخيرة(١) أو بعدها، وكان المقصود به الحفظ العام لكل ما هو قرآن في مكان واحد، وهذا الذي جرى فقد كتبه زيد ﷺ وأُودع عند حفصة -رضي الله عنها-.

٣. وجمع مرة أخرى زمن عثمان ﷺ واقتصر على ما سُمع منه ﷺ بعد العرضة الأخيرة، وإليكم التفصيل:

ـ قال عبيد بن السَّبّاق، حدثني زيد بن ثابت، أن أبا بكر قال له: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه.

فقلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ.

قال: هو والله خير.

فلم يزل أبوبكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فكنت أتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال.(٢)

قال الذهبي:

ومن جلالة زيد أن الصديق اعتمد عليه في كتابة القرآن العظيم في صحف، وجمعه من أفواه الرجال، ومن الأكتاف والرقاع، واحتفظوا بتلك الصحف مدة فكانت عند الصديق، ثم تسلمها الفاروق، ثم كانت

---

(١) المقصود بالعرضة الأخيرة هو العرضة التي كانت بين النبي ﷺ وجبريل في رمضان قبل وفاة النبي ﷺ ببضعة أشهر، ومعنى العرضة أن يقرأ جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يسمع، ويقرأ النبي ﷺ وجبريل عليه السلام يسمع.

وفي هذه العرضة الأخيرة نُسخت بعض القراءات، وبقي بعضها الآخر، فسمع بعض الصحابة القرآن الثابت بعد هذه العرضة ولم يسمع بعضهم فنشأ خلافٌ بعد ذلك بين الذين علمهم الصحابة ﷺ وقد تلافى عثمان ﷺ هذه المشكلة بما صنعه في جمعه القرآن كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

(٢) انظر السير: ٢/٤٢٦، والمقصود بالعُسُب -وهي جمع عَسِيْب- جرائد النخل الكبيرة التي كُشط خوصها فصار يمكن الكتابة عليها، وانظر "المعجم الوسيط": ع س ب.

عند أم المؤمنين حفصة، إلى أن ندب عثمان زيد بن ثابت ونفراً من قريش إلى كتابة هذا المصحف العثماني الذي به الآن في الأرض أزيد من ألفَيْ ألف نُسخة[1]، و لم يبق بأيدي الأمة قرآن سواه، ولله الحمد[2].

وأما جمع عثمان ﷺ للمصاحف فسببه ما ذكره أنس ﷺ، قال:

إن حذيفة قدم على عثمان، وكان يغزو مع أهل العراق قِبَل أرَمينية، فاجتمع في ذلك الغزو أهل الشام، وأهل العراق، فتنازعوا في القرآن حتى سمع حذيفة من اختلافهم ما يكره[3]، فركب حتى أتى عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنصارى في الكتب، ففزع لذلك عثمان، فأرسل إلى حفصةَ أم المؤمنين: أن أرسلي إلي بالصحف التي جُمع فيها القرآن، فأرسلت إليه بها، فأمر زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، أن ينسخوها في المصاحف، وقال: "إذا اختلفتم أنتم وزَيدٌ في عربية فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن إنما نزل بلسانهم".

ففعلوا حتى كُتبت المصاحف، ثم رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل جُنْد من أجناد المسلمين بمصحف، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل إليهم به، فذلك زمان حُرقت فيه المصاحف بالنار[4].

والذي جرى في جمع عثمان ﷺ إنما هو جمع كل ما سمع من النبي ﷺ لكن لا يعارض العرضة الأخيرة على جبريل قبل موته بشهور ﷺ فإن عارضها كما في المصاحف التي عند ابن مسعود وأبي -رضي الله عنهما- فإنه لا يقبل بحال، ولا يُعد قرآناً، وعلى هذا اتفق اثنا عشر ألفاً من صحابة رسول الله ﷺ في المدينة النبوية المنورة فكان إجماعاً، والله أعلم.

---

(١) أي مليوني نسخة، وهذا رقم كبير في زمن لم يكن فيه مطابع.

(٢) انظر السير: ٢/٤٢٦.

(٣) فقد كان أحدهم يقول للآخر: قراءتي أصح من قراءتك، فيرد عليه بقوله: بل قراءتي أصح من قراءتك، وإنما كانوا يقولون ذلك لأن الصحابة ﷺ علّم كل واحد منهم الناس بما سمعه من النبي ﷺ فكان بعضهم قد سمع شيئاً لم يسمعه الآخر، وبعضهم سمع قبل العرضة الأخيرة كما مر في الهامش رقم (١).

(٤) "نزهة الفضلاء": ٧٩/٤.

هناك تحديدات عديدة لضبط القرآن المكي والقرآن المدني، لكن أفضلها أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها؛ سواء نزل بمكة أم بالمدينة، عام الفتح أو عام حجة الوداع، أم بسفر من الأسفار[1]، فعلى ذلك يكون قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2] مدنياً مع أنه نزل في عرفة، لكن نزوله كان بعد الهجرة فصار مدنياً.

والقرآن المدني -باتفاق- عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك فهو مكي باتفاق[3].

قال البيهقي في الدلائل: في بعض السور التي نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة فألحقت بها.

وكذا قال ابن الحصار: وكل نوع من المكي والمدني منه آيات مستثناة؛ قال: إلا أن مِن الناس مَن اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل[4].

السور المتفق على مدنيتها:

اتفق العلماء على مدنية عشرين سورة وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والنور، والأحزاب، ومحمد ﷺ، والفتح، والحجرات، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والجمعة، والمنافقون، والطلاق، والتحريم، والنصر.

السور المختلف فيها:

اختلف العلماء في اثنتي عشرة سورة، وهي:

الرعد، الحج، الرحمن، الصف، التغابن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس.

وباقي السور متفق على مكيتها.

---

(١) "الاتقان في علوم القرآن": ١/٢٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) المصدر السابق: ١/٢٨.

(٤) المصدر السابق: ١/٣٨.

كتب القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه على شكل معين، وعلى يد جماعة من الصحابة ﷺ ووزعت النسخ التي كتبوها على العواصم الإسلامية وسميت هذه الطريقة الرسم العثماني، وقد اختلف الفقهاء في وجوب التزامها في كتابة القرآن الكريم أو جواز الخروج عنها[1].

هذا والذي استقر عليه اتفاق أكثر الفقهاء وجوب التــزام الرسم العثماني لعدة أمور منها:

١. هو الرسم الذي ارتضاه الصحابة ﷺ وكبار التابعين، وكتبوا به سائر المصاحف، وجرى على ذلك السلف ومن بعدهم إلى يوم الناس هذا.

٢. هو الرسم الذي يمكن أن تُقرأ به الكلمة بالقراءات المتعددة الواردة في القراءات العشر المتواترة.

هذا وبعض المصاحف انتهجت سبيلاً وسطاً فطبعت النص القرآني على الرسم العثماني، ووضعت جدولاً في هامش الصفحة يحوي الرسم الإملائي الحديث للكلمات التي قد يصعب على القارئ قراءتها، وهو جمع حسن.[2]

أما من أراد كتابة آيات من القرآن في بحث أو رسالة أو نحو ذلك فلا بأس أن يكتبه على قواعد الرسم الإملائي الحديث والأفضل التــزام الرسم العثماني، والله أعلم.

ثم إن هذا الرسم العثماني جرى عليه تحسينات بعد ذلك، فأُدخل عليه النقط والشَكْل الذي حدث في القرن الأول، ثم ارتقت طرائق الكتابة وتحسن شكلها، وظهر خطاطون عظام في زمن الدولة العباسية والدولة العثمانية على وجه الخصوص، فارتقوا في كتابة القرآن العظيم ضبطاً وشكلاً وجمالاً إلى أن وصل إلى قمته التي نراها في المصاحف اليوم التي أكثرها مطبوع عن خط يد الخطاطين الذين ورثوا جمال الخط وإتقانه عن أولئك الخطاطين الذين أشرت إليهم آنفاً.

---

(١) "الموسوعة الفقهية" ٣٣/٣٤.

(٢) وهو مصحف دار الشروق.

المبحث العشرون: القراءات

خفف الله -تعالى- على أمة نبيه محمد ﷺ فأباح للأمة أن يقرأوا القرآن بلهجات وأوضاع مختلفة لكنها كلها منقولة عن النبي ﷺ أو أَقَرّ الناس عليها، وأصل هذا التخفيف هو قول النبي ﷺ في الحديث المتواتر: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف" وهنالك رواية توضح سبب التخفيف، فعن أبي بن كعب ﷺ أنه قال:

"لقي رسولُ الله ﷺ جبريلَ فقال:

يا جبريل: إني بُعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط.

قال: يا محمد: إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف".(١)

ومعنى سبعة أحرف أي سبع طرائقَ وأوجه.

التعريف:

القراءات في اللغة جمع قراءة وهي التلاوة.

والقراءات في الاصطلاح: علم بكيفية أداء كلمات القرآن الكريم واختلافها معزواً لناقله.

وموضوع علم القراءات: كلمات الكتاب العزيز.

وفائدته: صيانته عن التحريف والتغيير، مع ما فيه من فوائد كثيرة تُبنى عليها الأحكام.

قال الزركشي:

القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنـــزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور، من الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما.

أركان القراءة الصحيحة:

قال ابن الجزري:

كل قراءة وافقت العربية -ولو بوجه- ووافقت أحد المصاحف العثمانية -ولو احتمالاً- وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها ضعيفة، أو شاذة، أو باطلة، سواء كانت عن السبعة، أم عمَّن هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف.

قال أبو شامة:

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه.

فلا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تُعزى إلى أحد السبعة، ويطلق عليها لفظ الصحة، وأنها أنزلت هكذا، إلا إذا دخلت في ذلك الضابط؛ فإن القراءة المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه، والشاذ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما يُنقل عن غيرهم.

القراءات المتواترة والشاذة:

اختلف الفقهاء في المتواتر من القراءات.

فذهب الحنفية في الصحيح، والمالكية على المشهور، والحنابلة إلى أن القراءات المتواترة هي قراءات قرّاء الإسلام المشهورين العشرة.

قال ابن عابدين:

القرآن الذي تجوز به الصلاة بالاتفاق هو المضبوط في المصاحف الأئمة التي بعث بها عثمان ﷺ إلى الأمصار، وهو الذي أجمع عليه الأئمة العشرة، وهذا هو المتواتر جملة وتفصيلاً، فما فوق السبعة إلى العشرة غير شاذ، وإنما الشاذ ما وراء العشرة، وهو الصحيح.

وقال العدوي: الشاذ عند ابن السبكي ما وراء العشرة، وعند ابن الحاجب في أصوله ما وراء السبعة، وقول ابن السبكي هو الصحيح في الأصول، وقول ابن الحاجب مرجوع فيه.

ملحظ مهم:

لا علاقة لحديث الأحرف السبعة بالقراءات السبع، إنما القراءات السبع والعشر جزء من الأحرف السبعة، والله أعلم.

أشهر القراءات ورواتهم:

١. نافع المدني: وهو أبو رويم نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم الليثي، وراوياه: قالون، وورش.

٢. ابن كثير: وهو عبدالله بن كثير المكي، وهو من التابعين، وراوياه: البزي، وقنبل.

٣. أبو عمرو البصري: وهو زبّان بن العلاء بن عمار المازني البصري، وراوياه: الدُّوري، والسوسي.

٤. ابن عامر الشامي:

وهو عبدالله بن عامر الشامي اليحصبي، وهو من التابعين، قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبدالملك، ويكنى أبا عمران، وراوياه: هشام، وابن ذكوان.

٥. عاصم الكوفي:

وهو عاصم بن أبي النَجُود، ويقال له ابن بهدلة، ويكنى أبا بكر، وهو من التابعين، وراوياه: شعبة، وحفص.

٦. حمزة الكوفي:

وهو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي، ويكنى أبا عمارة، وراوياه: خلف، وخلاد.

٧. الكسائي الكوفي: وهو علي بن حمزة النحوي، ويكنى أبا الحسن، وراوياه: أبو الحارث، وحفص الدُوري.

وأصحاب القراءات المختلف في تواترها ثلاثة، وهم:

٨. أبو جعفر المدني: وهو يزيد بن القعقاع، وراوياه: ابن وردان، وابن جماز.

٩. يعقوب البصري: وهو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي، وراوياه: رويس، وروح.

١٠. خلف: وهو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزاز البغدادي، وراوياه: إسحاق، وإدريس.(١)

والصحيح أن هؤلاء الثلاثة قراءاتهم متواترة، بل بعضها أفضل من بعض السبعة.

وقد جاء عن بعض الأئمة تفضيل بعض القراءات على بعضها الآخر، وهذا التفضيل إنما هو من باب أن بعضها أفصح من بعض لا أن بعضها أصح من بعض؛ فكلها في الصحة سواء فهي متواترة، فمن ذلك أن الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- سئل: أيهما أعجب إليك من القراءات؟

قال: قراءة نافع ثم قال: كما قرأ عاصم.(٢)

من قرأ القرآن بالقراءات العشر وعمره عشر سنوات:

جاء في ترجمة أبي اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي، قال الإمام الذهبي:

حفظ القرآن وهو صغير مميز، وقرأه بالروايات العشر، وله عشرة أعوام، وهذا شيء ما تهيأ لأحد قبله، ثم عاش حتى انتهى إليه علو الإسناد في القراءات والحديث.(٣)

رؤيا فيها حث على قراءات بعينها:

عن أبي عثمان المازني قال:

رأيت النبي ﷺ في النوم، فقرأت عليه سورة طه فقلت: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾(٤)، فقال: اقرأ ﴿سِوًى﴾ قراءة يعقوب، (يعني الحضرمي).(٥)

والرؤى لا تفيد حكماً ولا تفضيلاً إنما يُستأنس بها فقط.

---

(١) "الموسوعة الفقهية" ٣٣/٤١-٤٥.

(٢) "مجموع فتاوى القرآن الكريم": ٢/٧٨٤.

(٣) "نزهة الفضلاء": ٤/١٦٦٣.

(٤) سورة طه: الآية ٥٨.

(٥) انظر السير: ١٠/١٦٩-١٧٤، وانظر النزهة: ٢/٨٦٣.

رؤيا باهرة في شأن القرآن

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "رأيت رب العزة في المنام فقلت: يا رب، ما أفضل ما يتقرب به إليك المتقربون؟ فقال: بكلامي يا أحمد، فقلت: يارب بفهمٍ أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم".[١]

(١) "سير أعلام النبلاء": ٣٤٧/١١.

المبحث الحادي والعشرون: متشابهات القرآن العظيم

المقصود بالمتشابه هنا ما يتقارب لفظه بحيث يمكن أن يختلط على الحافظ مثل قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[1]، وقوله: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾[2]، والعناية بالمتشابة وفهم سببه يقوي حفظ الحافظ ويعينه على ضبط حفظه وإتقانه.

قال الإمام السيوطي مبيناً المتشابه وممثلاً له:

والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة، بل تأتي في موضع واحد مقدّماً، وفي آخر مؤخراً، كقوله في البقرة: ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾[3]، وفي الأعراف: ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾[4].

وفي البقرة: ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾[5]، وسائر القرآن ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[6].

أو في موضع بزيادة، وفي آخر بدونها، نحو ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾[7] في البقرة، وفي يس: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾[8].

وفي البقرة: ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[9] وفي الأنفال: ﴿ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[10].

أو في موضع معرفاً، وفي آخر منكراً، أو مفرداً وفي آخر جمعاً، أو بحرف وفي آخر بحرفٍ آخر، أو مدغماً وفي آخر مفكوكاً، وهذا النوع يَتداخل مع نوع المناسبات.

وقد صنف جماعة من العلماء في ضبط ما جاء في القرآن العظيم من المتشابهات، وذلك حتى يستعين بها حافظ القرآن على ضبط حفظه، فمن ذلك:

كتاب "كشف المعاني" لابن جماعة، نقل منه الحافظ السيوطي عدداً من المواضع منها أنه ذكر في الجمع بين الرحمن والرحيم في البسملة: أن أحسن ما يقال فيه، ولم نجده لغيره، أن فعلان مبالغة في كثرة الشيء، ولا يلزم منه الدوام كغضبان، وفعيل لدوام الصفة، كظريف، فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائمها ...

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٦.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٥٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٦١.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٧٣.

(٦) سورة المائدة: الآية ٣.

(٧) سورة البقرة: الآية ٦.

(٨) سورة يس: الآية ١٠.

(٩) سورة البقرة: الآية ١٩٣.

(١٠) سورة الأنفال: الآية ٣٩.

ـ وفي البقـرة ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ وفي إبراهيـم: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾[١] لأن آية البقرة دعا بها إبراهيم عند نـزول إسماعيل وهاجر في الوادي قبل بناء مكة، وآية سورة إبراهيم بعـد عوده إليها وبنائها.

ـ وفي البقرة: ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾[٢] وفي المائدة والأنعـام والنحـل: ﴿ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[٣] لأن آية البقرة وردت في سياق المأكول وحله وحرمته، فكان تقدمُ ضمير قد تعلق الفعل به أهم، وآية المائـدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره، وكذلك آية النحل بعد قوله: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾[٤] فكان تقدم اسمه أهم.

وأيضاً فآية النحل والأنعام نزلتا بمكة، فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائحهم أهم؛ لمـا يجب من توحيده وإفراده بالتسمية على الذبائح، وآية البقرة نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل وما يحرم، فقدم الأهم فيه.

ـ قولـه تعـالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾[٥] وقال بعدُ: ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[٦] لأنه أشار بالحدود في الأول إلى نفس المحرمات في الصيام والاعتكاف؛ من الأكل والشرب والوطء والمباشرة، فناسب: ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾.

وفي الثانية إلى المأمورات في أحكام الحل والحرمة في نكاح المشركات وأحكام الطلاق والعِدد والإيـلاء والرجعة وحصر الطلاق في الثلاث والخُلع، فناسب: ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ أي قفـوا عندها، ولذلك قال بعـد ذلك ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٧].

ـ قوله تعالى:

﴿ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٨] وقال بعد ذلـك: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٩] فأتى بالإحسان في الأولى وبالتقوى في الثانية، لأن الأولى في مطلقة قبل الفرض والدخول، فالإعطاء في حقها إحسان، وإن أوجبه قوم، لأنه لافي مقابله شيء، فناسب المحسنين.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٣.
(٣) سورة المائدة: الآية ٣، والأنعام: الآية ١٤٥، والنحل: الآية ١١٥.
(٤) سورة النحل: الآية ١١٤.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٧.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.
(٧) سورة البقرة: الآية ٢٣٠.
(٨) سورة البقرة: الآية ٢٣٦.
(٩) سورة البقرة: الآية ٢٣٦.

والثانية في الرجعية، والمراد بالمتاع عند المحققين النفقة، ونفقة الرجعية واجبةٌ، فناسب حق المتقين.

ورجح أن المراد به النفقة أنه ورد عقب قوله: ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ﴾[1] والمراد به النفقة، وكانت واجبة قبل النسخ، ثم قال: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ﴾ فظهر أنه النفقة في عدة الرجعية، بخلاف البائن بخلع، فإن الطلاق من جهتها، فكيف تُعطَى المتعة التي شرعت جبراً للكسر بالطلاق، وهي الراغبة فيه؟ فظهر أن المراد بالمتاع هنا النفقة زمن العدة، لا المتعة.

وللعلماء في هاتين الآيتين اضطراب كثير، وما ذكرته أظهر؛ لأنه تقدم حكم الخلع، وحكم عدة الموت، وحكم المطلقة بعد التسمية، وبقى حكم المطلقة الرجعية، فيحمل عليه.

ـ في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2] أفرد ﴿ٱلنُّورِ﴾ لأن دين الحق واحد، وجمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لأن الكفر أنواع.

ـ في البقرة: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾[3] لأن المثل للعامل، فكان تقديم نفي قدرته، وصلتها وهي: ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أنسب.

وفي سورة إبراهيم: ﴿مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾[4] لأن المثل للعمل، لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾[5] تقديره: مثل أعمال الذين كفروا، فكان تقديم ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أنسب؛ لأنه صلة ﴿شَيۡءٖ﴾ وهو الكسب.

ـ وفي البقرة: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾[6] قدم المغفرة، وفي المائدة قدم ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[7] لأن آية البقرة جاءت ترغيباً في المسارعة إلى طلب المغفرة، وإشارة إلى سعة رحمة الله، وآية المائدة جاءت عقب ذكر السارق والسارقة[8]، فناسب ذكر العذاب.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٧، والمائدة: آية ١٦.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٦٤.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٤١.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٨٤.

(٧) سورة المائدة: الآية ٤٠.

(٨) في الآية ٣٨ من سورة المائدة.

ـ قوله في آل عمران ومريم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾[1] وفي الزخرف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾[2] لأنه تقدم في السورتين من الآيات الدالة على توحيد الرب وقدرته، وعبودية المسيح له، ما أغنى عن التأكيد، بخلاف الزخرف.

ـ في يونس: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[3] قدم الضرر لتقدم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[4]، وفي الفرقان: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾[5] لتقدم ذكر النعم.

ـ ونظيره تقديم "الأرض" في يونس في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[6] ولأنه تقدم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية، فناسب تقديم الأرض؛ لأن الشؤون والعمل في الأرض، وفي سبأ: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[7].

ـ وقد جاء الإمام السيوطي بأمثلة أخرى عديدة منها:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ﴾[8]، وفي إبراهيم:

﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾[9] بالواو، لأن الأولى من كلامه تعالى لهم، فلم يعدّد عليهم المحن تكرّماً في الخطاب؛ والثانية من كلام موسى فعَدّدها.

وفي الأعراف ﴿يُقَتِّلُونَ﴾[10] وهو من تنويع الألفاظ المسمّى بالتفنّن.

وهذه أمثلة منه بتوجيهها:

ـ وكذا في البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾[11]، وفي الأعراف ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾[1] لأن الانفجار أبلغ في كثرة الماء، فناسب سياق ذكر النعم التعبير به.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٥١، وسورة مريم: الآية ٣٦.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٦٤.

(٣) سورة يونس: الآية ١٨.

(٤) سورة يونس: الآية ١٨.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٥٥.

(٦) سورة يونس: الآية ٦١.

(٧) سورة سبأ: آية ٣، وهكذا وقف الكلام دون ذكر لفائدة تقديم "السموات" في سورة سبأ.

(٨) سورة البقرة: الآية ٤٩.

(٩) سورة إبراهيم: الآية ٦.

(١٠) سورة الأعراف: الآية ١٤١.

(١١) سورة البقرة: الآية ٦٠.

ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾[2]، وفي آل عمران ﴿مَّعۡدُودَٰتٍ﴾[3] قال ابن جماعة: لأن قائل ذلك فرقتان من اليهود، إحداهما قالت: إنما نعذّب بالنار سبعة أيام عدد أيام الدنيا، والأخرى قالت: إنما نعذب أربعين عدة أيام عبادة آبائهم العجل، فآية البقرة تحتمل قصْد الفرقة الثانية حيث عبّر بجمع الكثرة، وآل عمران بالفرقة الأولى حيث أتى بجمع القلة.

ـ قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[4]، وفي إبراهيم ﴿هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾[5] لأن الأول دعا به قبل مصيره بلداً عند ترك هاجر وإسماعيل به، وهو وادٍ، فدعا بأن يصير بلداً، والثاني دعا به بعد عوده وسكنى جُرْهم به ومصيره بلداً فدعا بأمنه.

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾[6]، وفي الإسراء ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾[7]، لأن الأولى خطاب للفقراء المقلّين، أي لا تقتلوهم من فقرٍ بكم، فحَسُن ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ﴾[8] ما يزول به إملاقكم، ثم قال "وإياهم"، أي نرزقكم جميعاً، والثانية خطاب للأغنياء؛ أي خشية فقرٍ يحصل لكم بسببهم، ولذا حَسُن ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾[9].

فهذه أمثلة يستضاء بها.[10]

حسن استحضار القرآن:

ويراد به أن الحافظ قادر على تذكر الآية التي يريدها من كتاب الله تعالى، وانتزاعها في الوقت الذي يريد، وهذه نعمة لا يُؤتاها كل أحد.

قال أبو عبدالله بشر القطان:

ما رأيت أحسن انتزاعاً لما أراد من آي القرآن من أبي سهل بن زياد، وكان جارنا، وكان يديم صلاة الليل، والتلاوة، فلكثرة درسه، صار القرآن كأنه بين عينيه[11].

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ٨٠.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٢٤.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٦.
(٥) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.
(٦) سورة الأنعام: الآية ١٥١.
(٧) سورة الإسراء: الآية ٣١.
(٨) سورة الأنعام: الآية ١٥١.
(٩) سورة الإسراء: الآية ٣١.
(١٠) "الإتقان في علوم القرآن": ٣/٣٣٩-٣٤٤.
(١١) انظر السير: ١٥/٥٢١.

قال أنس بن مالك: قال النبي ﷺ لأبي بن كعب:

"إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن" وفي لفظ: "أمرني أن أُقرئك القرآن".

قال: آلله سمَّاني لك؟

قال ﷺ: "نعم".

قال: وذُكرْت عندَ ربِّ العالمين؟

قال ﷺ: "نعم".

فذرفت عيناه.

ــ ولما سأل النبي ﷺ أبياً عن أي آيــة في القــرآن أعظــم، فقــال أبي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[1] ضرب النبي ﷺ في صدره وقال:

"لِيَهنَكَ العِلْم أبا المنذر".[2]

ــ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ :

"خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأُبَيٌّ، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حُذيفة".[3]

ــ قال عبدالله بن مسعود:

والذي لا إله غيره لقد قرأت من فِي رسول الله ﷺ بضْعاً وسبعين سورة، ولو أعلم أحداً أعلم بكتــاب الله مني تُبْلِغُنِيْه الإبل لأتيْته.[4]

وقال أيضاً ﷺ:

"والله الذي لا إله غيره ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أُنزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه".[5]

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٢) انظر السير: ١/٣٨٩.

(٣) انظر السير: ١/٤٤٣.

(٤) انظر السير: ١/٤٦١.

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: ٤/١٩١٢، ٤٧١٦.

المبحث الثالث والعشرون: هِمَّةُ السلف في تعلم القرآن العظيم

ـــ عن عبدالله بن مسعود قال: كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آياتٍ لم نتعلم من العشر الـتي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها، يعني من العلم.(١)

ـــ وعن عطاء بن السائب، أن أبا عبدالرحمن السلمي قال:

أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا علموا عشر آياتٍ لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخَـر حتى يعلموا ما فيهنَّ، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وسَيَرِث القرآنَ بعدنا قومٌ يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم.(٢)

ـــ وعن حَفْصَةَ بنتِ سِيرينَ، قالت: قال لي أبو العاليـة:

قرأت القرآن على عمر رضي الله عنه ثلاث مرار.(٣)

ـــ قال مجاهد:

عرضتُ القرآن ثلاث عَرَضاتٍ على ابن عباس، أَقِفُه عند كل آيةٍ، أسْأله فيم نزل، وكيف كانت.(٤)

ـــ وعن أبي بكر ابن عيّاش قال:

اختلفت إلى عاصم نحواً من ثلاث سنين، في الحر والشتاء والمطر، حتى ربما استحييت من أهل مسجد بني كاهل.

ويقال إن ورشاً تلا على نافع أربع ختمات في شهر واحد.

وقيل: إن سليم بن عيسى تلا على حمزة بن حبيب عشر خِتَم.

ـــ قال ابن عمر:

تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما تعلمها نحر جزوراً.(٥)

ـــ وقال محمد بن علي السلمي:

قمت ليلةً سَحَراً لآخذ النوبة على ابن الأخْرَم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً، وقال: لم تدركني النوبة إلى العصر.(٦)

---

(١) انظر السير: ٤٦١/١- ٥٠٠.

(٢) انظر السير: ٤/ ٢٦٧.

(٣) المصدر السابق: ٢٠٧/٤-٢١٣.

(٤) المصدر السابق: ٤٤٩/٤- ٤٥٧.

(٥) "نزهة الفضلاء": ٤٧/٤.

(٦) انظر السير: ٥٦٤/١٥.

وهذا من أعظم ما سُمع من الهمة في التعليم، فإن هذا المتعلم قام قبل الفجر بمدة، وجاء إلى شيخه قبل الفجر أيضاً فوجد أنه سبقه إلى الشيخ ثلاثون قارئاً فبالله متى جاء هؤلاء؟

ثم إنه بقي إلى العصر ليقرأ فكم قرأ من صفحة لينتظر هذه المدة كلها؟ واليوم يأتي الطلاب إلى المساجد من العصر إلى المغرب، أو من المغرب إلى العشاء، ويجدون الشيخ حاضراً ليقرئهم ومع ذلك همة أكثرهم ساقطة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

عن عبدالله بن مسعود قال: كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آياتٍ لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها، يعني من العلم.(١)

وعن جندب بن عبدالله البجلي، قال: كنا غِلماناً حَزاوِرَةً(٢) مع رسول الله ﷺ فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيماناً.(٣)

وعن حَفْصَةَ بنتِ سِيرينَ، قالت: قال لي أبو العاليــة:

قرأت القرآن على عمر رضي الله عنه ثلاث مرار.(٤)

وعن عطاء بن السائب، أن أبا عبدالرحمن السلمي قال:

أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يُجاوزوهن إلى العشر الأُخَر حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وسَيَرِثُ القرآن بعدنا قومٌ يشربونه شرْب الماء لا يُجاوِز تراقيهم.(٥)

وقال الإمام الذهبي:

قرأ يحيى بن وثَّاب القرآن كله على عبيد بن نُضيلة صاحب علقمة فتحفَّظَ عليه كل يوم آية.(٦)

قال مجاهد:

عرضتُ القرآن ثلاث عَرَضاتٍ على ابن عباس، أَقِفُه عند كل آيةٍ، أسْأله فيم نزل، وكيف كانت.(٧)

عن أبي بكر ابن عَيَّاش قال:

تَعلَّمت القرآن من عاصم خمساً خمساً، ولم أتعلم من غيره، ولا قرأت على غيره.(٨)

كيفية تعليم القرآن العظيم:

عن محمد بن كعب، قال:

جمع القرآن خمسة: معاذ، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأُبيّ، وأبو أيوب، فلما كان زمن عمر كتب إليه يزيد بن أبي سفيان: إن أهل الشام قد كثروا، وملأوا المدائن، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأعني برجال يعلموهم.

---

(١) انظر السير: ١/٤٦١- ٥٠٠.

(٢) الحزاورة: جمع حَزَوّر: وهو الغُلام إذا قارب البلوغ، والتاء لتأنيث الجمع.

(٣) انظر السير: ١/١٧٤- ١٧٥.

(٤) المصدر السابق: ٤/٢٠٧-٢١٣.

(٥) المصدر السابق: ٤/٢٦٧- ٢٧٢.

(٦) المصدر السابق: ٤/٣٧٩- ٣٨٢.

(٧) المصدر السابق: ٤/٤٤٩- ٤٥٧.

(٨) المصدر السابق: ٨/٤٨٩- ٤٩٤.

فدعا عمر الخمسة فقال: إن إخوانكم قد استعانوني مَن يعلمهم القرآن، ويفقههم في الدين، فأعينوني - يرحمكم الله- بثلاثة منكم إن أحببتم، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا.

فقالوا: ما كنا لِنتساهم، هذا شيخ كبير -لأبي أيوب- وأما هذا فسقيم -لأُبَيٍّ- فخرج معاذ وعبادة وأبو الدرداء.

فقال عمر: ابدأوا بحمص، فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة، منهم من يُلَقَّن[1]، فإذا رأيتم ذلك، فوجهوا إليه طائفة من الناس، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين.

قال: فقدموا حمص فكانوا بها، حتى إذا رضوا من الناس، أقام بها عبادة بن الصامت، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين، فمات في طاعون عمواس ثم سار عبادة بعد إلى فلسطين وبها مات، ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات.[2]

ـ وعن مسلم بن مِشكم: قال لي أبو الدرداء:

اعْدُد من في مجلسنا قال: فجاءوا ألفاً وستَّ مئة ونيفاً، فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرةً عشرة، فإذا صلى الصبح انفتل وقرأ جُزءاً، فيُحدقون به يسمعون ألفاظه، وكان ابن عامرٍ مقدماً فيهم.

...

ـ وقال هشام بن عمار: حدثنا يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، قال:

كان أبو الدرداء يصلي، ثم يُقرئ ويقرأ، حتى إذا أراد القيام، قال لأصحابه: هل من وليمة أو عقيقة نشهدها؟ فإن قالوا: نعم، وإلا قال: اللهم إني أُشهدك أني صائم، وهو الذي سن هذه الحِلَقَ للقراءة.[3]

وقيل: الذين في حلقة إقراء أبي الدرداء كانوا أزيد من ألف رجل، ولكل عشرة منهم مُلَقِّن، وكان أبو الدرداء يطوف عليهم قائماً، فإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء، يعني يعرض عليه.[4]

ـ وكان ابن الأَخْرَم محمد بن النضر الرَّبَعيّ الدمشقي المقرئ (ت ٣٤٢) يُعِين من يقرأ عليه بالإشارة بيده وفيه: مرة إلى الضم، ومرة إلى الفتح، ومرة إلى الكسر، ومرة إلى الإدغام ومرة إلى الإظهار، بإشارات عُرِفت منه وفُهمت عنه.[5]

قراءة اثنين أو أكثر على واحد:

ـ قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى عن الإمام علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣):

---

(١) أي يُعَلَّم.

(٢) انظر السير: ٢/٣٣٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) "الأخبار العليات من الوافي بالوفيات": ١/١٤١.

كان يترخّص في إقراء اثنين فأكثر كل واحدٍ في سورة، وفي هذا خلاف السُنة؛ لأننا أُمرنا بالإنصات إلى قارئ لنفهم ونعقل ونتدبر[1].

عدم أخذ الأجر على تعليمه:

ـ عن أبي عبدالرحمن السلمي أنه جاء وفي الدار جِلال وجُزُر، فقالوا: بَعَثَ بها عمرو بن حُرَيث لأنك علّمت ابنه القرآن.

فقال: رُدَّ، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً.[2]

ـ وعن محمد بن جعفر بن النجار قال:

كان أحمد بن محمد بن سعيد ابن عُقْدَة: يؤدب ابن هشام الخَزّاز، فلمّا حذَقَ الصَّبيُّ وتعلم وَجَّه إليه أبوه بدنانير صالحة، فردها فظن ابن هشام أنها استُقِلّت فأضعفها له، فقال: ما رَدَدْتُها استقلالاً، ولكن سألني الصبي أن أعلمه القرآن، فاختلط تعليم النحو بتعليم القرآن، ولا أستَحِلُّ أنْ آخذ منه شيئاً، ولو دفع إلي الدنيا.[3]

وسيأتي في المبحث السابع والعشرين حكم أخذ المال على القراءة، إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر السير: ٢٣/١٢٢-١٢٤.

(٢) انظر السير: ٤/٢٦٧.

(٣) المصدر السابق.

المبحث الخامس والعشرون: ختم القرآن العظيم

كان السلف ﷺ لهم عادات مختلفة في قدر ما يختمون فيه.

فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة، وبعضهم مرتين، وانتهى بعضهم إلى ثلاث، ومنهم من يختم في كل شهر مرة، وإليكم أمثلة على هذا:

عن أُبي بن كعب قال: إنا لنقرؤه في ثمان ليال، يعني القرآن[(١)].

وعن أبي المهلّب: كان تميمٌ الدّاري يختم القرآن في سبع[(٢)].

وقال أبو خلدة خالد بن دينار: سمعت أبا العالية يقول:

كنا عبيداً مملوكين، منا من يؤدي الضرائب، ومنا من يخدم أهله، فكنا نختم كل ليلة، فشق علينا حتى شكا بعضنا إلى بعض، فلقينا أصحاب رسول الله فعلمونا أن نختم كل جمعة فصلينا ونمنا و لم يشق علينا[(٣)].

وقال عمرو بن عبدالرحمن بن مُحَيْريز:

كان جدي عبدالله بن مُحيريز يختم في كل جمعة[(٤)].

وكثير من السلف –خاصة الصحابة ﷺ– على قراءة القرآن مرة كل أسبوع.

وعن ابن فضيل، عن أبيه قال: كان أبو إسْحاق السَّبيعي يَقرأُ القرآن في كلِّ ثلاث[(٥)].

وعن ابن شَوْذَب، قال:

كان عرْوة يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف نظراً، ويقوم به الليل، فما تركه إلا ليلة قُطعت رجله، وكان وقع فيها الآكلة فنُشِرت[(٦)].

وقال ابن المديني:

حفر بشر بن منصور قبره، وختم فيه القرآن، وكان وِرْده ثلث القرآن.[(٧)]

وقد روي من وجوه متعددة، أن أبا بكر بن عياش مكث نحواً من أربعين سنة يختم القرآن في كل يوم وليلة مرة.

ــ قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى:

وهذه عبادة يخضع لها، ولكن متابعة السنة أولى فقد صحّ أن النبي ﷺ نهى عبدالله بن عمرو أن يقرأ القرآن في أقلّ من ثلاث وقال عليه السلام: "لم يفقه مَن قرأ القرآن في أقل من ثلاث".[(٨)]

---

(١) انظر السير: ١/ ٣٨٩-٤٠٢.
(٢) انظر السير: ٢/٤٤٢-٤٤٨.
(٣) انظر السير: ٤/٢٠٧-٢١٣.
(٤) انظر السير: ٤/٤٩٤-٤٩٦.
(٥) انظر السير: ٥/٣٩٢ -٤٠١.
(٦) انظر السير: ٤/٤٢١- ٤٣٧.
(٧) انظر السير: ٨/٣٥٩-٣٦٢.
(٨) انظر السير: ٨/٤٩٥-٥٠٨. وسيأتي تفصيل لهذا وردٌّ لاعتراض الذهبي رحمه الله تعالى قريباً إن شاء الله تعالى.

قال يحيى الحِمّاني:

لما حضرت أبا بكر ابن عيّاش الوفاة، بكت أخته، فقال لها:

ما يبكيك؟ انظري إلى تلك الزاوية، فقد ختم أخوك فيها ثمانية عشر ألف ختمة.[١]

وعن حسين العنقزي قال:

لما نـــزل بابن إدريس الموت، بكت بنته، فقال: لا تبكي يا بنية، فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة.[٢]

ــ وقال المُؤتَمَن: سمعت عبدالمحسن الشّيخيّ يقول:

كنت عديل[٣] أبي بكر الخطيب (ت٤٦٣) من دمشق إلى بغداد فكان له في كل يوم وليلة ختمة.[٤]

ــ وهذا المأمون الخليفة العباسي قد ختم في أحد الرمضانات القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة.[٥]

ــ وكان البخاري يختم القرآن كل يوم نهاراً، ويقرأ في الليل عند السَحَر ثلثاً من القرآن، فمجموع ورده ختمة وثلث ختمة.[٦]

ــ وختم أبوبكر محمد بن علي الكتاني (ت ٣٢٢) القرآن في الطواف اثني عشرة ألف ختمة.[٧]

ــ وكان الشيخ أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدالدايم المقدسي الصالحيّ عابداً، وكان لا يبرح المصحف بين يديه، ويتلو كل يوم ختمة.[٨]

قال النووي:

والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرأه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مُرْصَدٌ له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرمة.[٩]

وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في كل يوم وليلة؛ وذلك لحديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: "اقرأ القرآن في كل ثلاث"، ولم يكره ذلك آخرون، وقال أبو الوليد الباجي:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر السير: ٩/٤٢-٤٨.

(٣) أي مُعادله في الركوب على الجمل.

(٤) المصدر السابق: ١٨/٢٧٠-٢٩٧.

(٥) المصدر السابق: ٢/٨٧٦.

(٦) "المختار من طبقات الشافعية الكبرى": ٢٠٤.

(٧) "الأخبار العليات": ١/١٠٢.

(٨) المصدر السابق: ٢/٩٩٧.

(٩) الهذرمة: السرعة مع دمج الحروف فلا تتضح القراءة.

أمر النبي ﷺ عبدالله بن عمرو أن يختم في سبع أو ثلاث، يحتمل أنه الأفضل في الجملة، أو أنه الأفضل في حق ابن عمرو، لما علم من ترتيله في قراءته، وعلم من ضعفه عن استدامته أكثر مما حدّ له، وأما من استطاع أكثر من ذلك فلا تمنع الزيادة عليه، وسئل مالك عن الرجل يختم القرآن في كل ليلة فقال: ما أحسن ذلك، إن القرآن إمام كل خير.

واختلف الفقهاء في عدد الأيام التي ينبغي أن يختم فيها القرآن:

ذهب المالكية والحنابلة إلى أنه يسن ختم القرآن في كل أسبوع لقول النبي ﷺ لعبد الله ابن عمرو: "اقرأه في سبع، ولا تزد على ذلك"(١).

قالوا: وإن قرأه في ثلاث فحسن، لما روى عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله إن لي قوة، قال: "اقرأ القرآن في كل ثلاث"(٢).

لكن نص المالكية بأن التفهم مع قلة القرآن أفضل من سرد حروفه لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾(٣).

وصرح الحنابلة بكراهة تأخير ختم القرآن فوق أربعين يوماً بلا عذر، لأنه يفضي إلى نسيانه والتهاون فيه، وبتحريم تأخير الختم فوق أربعين إن خاف نسيانه.

وقال الحنفية: ينبغي لحافظ القرآن أن يختم في كل أربعين يوماً مرة، لأن المقصود من قراءة القرآن فهم معانيه والاعتبار بما فيه لا مجرد التلاوة، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٤)، ذلك يحصل بالتأني لا بالتواني في المعاني، فقدر للختم أقله بأربعين يوماً، كل يوم حزب ونصف أو ثلثي حزب، وقيل: ينبغي أن يختمه في السنة مرتين، روى عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أنه قال: من قرأ القرآن في السنة مرتين فقد قضى حقه.

وصرح الحنفية بأنه لا يستحب أن يختم في أقل من ثلاثة أيام، لما روى عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث"(٥).(٦)

الختم في رمضان:

كان كثير من السلف يختم القرآن في رمضان كل يوم مرة وبعضهم أكثر من ذلك، وبعضهم أقل من ذلك، وهذا لا تعارضَ بينه وبين نهي النبي ﷺ أن يُقرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث، وذلك لأن المقصود به هو

(١) أخرجه البخاري "فتح الباري": ٩/٩٥، و"مسلم": ٢/٨٢٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد: ٢/١٩٨.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٤) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٥) أخرجه الترمذي: ٥/١٩٨، وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) "الموسوعة الفقهية": ٣٣/٥٨-٥٩.

النهي عن المداومة على هذه المدة في الختم، أما مَن أراد استغلال رمضان والإكثار من قراءة القرآن فيه فلا حرج عليه إن شاء الله، والنهي لا يتناوله، والله أعلم.[١]

عن إبراهيم، قال: كان الأسود بن يزيد يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين، وكان ينام بين المغرب والعشاء، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ست ليال[٢].

وقال سلام بن أبي مطيع:

كان قتادة يختم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث، فإذا جاء العشر ختم كل ليلة[٣].

وقال البغوي: حدثني محمد بن زهير، قال:

كان أبي يجمعنا في وقت ختمه للقرآن في شهر رمضان في كل يوم وليلة ثلاث مرات يختم تسعين ختمة في رمضان.

وكان لأبي العبَّاس بن عطاء البغدادي في كل يوم ختمة، وفي رمضان تسعون ختمة.[٤]

ـــ قال أبوبكر بن الحداد:

أخذت نفسي بما رواه الربيع عن الشافعي، أنه كان يختم في رمضان ستين ختمة، سوى ما يقرأ في الصلاة، فأكثر ما قدرت عليه تسعاً وخمسين ختمة، وأتيت في غير رمضان بثلاثين ختمة.[٥]

قلت: وقد حاولت أن أفهم كيف استطاع هؤلاء ﷺ أن يختموا القرآن تسعين مرة، أو ستين أو غير ذلك من العدد الكبير من الختمات في شهر واحد فرجح عندي أنهم كانوا يقرأونه بأعينهم فقط أو بأعينهم وتحريك ألسنتهم بلا نطق، ولا تجويد تبعاً لذلك، لأنه لابد من قرابة عشرين دقيقة لقراءة الجزء الواحد بتجويد فهذه إذن عشر ساعات للختمة الواحدة فكيف يستطيع شخص أن يختم ثلاث ختمات في اليوم أو ختمتين إذن؟!

لكن هذا الذي يفعل ذلك لا يُعد قارئاً عند جمهور العلماء بل لابد له من إسماع نفسه على الأقل، وانظر المبحث السابع والعشرين القادم في مطلب الجهر والإسرار بالقراءة، والله تعالى أعلم.

ويسن الدعاء عقب ختم القرآن، لحديث الطبراني وغيره عن العرباض بن سارية مرفوعاً "من ختم القرآن فله دعوة مستجابة"[٦]، ويسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقب الختم، لحديث "أحب الأعمال إلى الله الحال المرتحل، الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل"[٧].

---

(١) وانظر أيضاً قول الباجي الذي نقلته آنفاً.

(٢) انظر السير: ٤/٥٠-٥٣.

(٣) انظر السير: ٥-٢٦٩.

(٤) انظر السير: ١٤/٢٥٥-٢٥٦.

(٥) المصدر السابق: ١٥/٤٤٥-٤٥١.

(٦) حديث : "من ختم القرآن فله دعوة مستجابة"

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/٢٥٩) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٧٢) وقال: فيه عبدالحميد بن سليمان وهو ضعيف، لكن فيه آثار عن أنس وغيره.

(٧) حديث: "أحب الأعمال إلى الله الحال المرتحل..." أخرجه الترمذي (٥/١٩٨) من حديث ابن عباس وقال: إسناده ليس بالقوي.

عن عبدالكريم السكري قال: كان عبدالله بن المبارك يُعجُبه إذا خَـتمَ القـرآن أن يكـون دعـاؤه في السجود.(١)

قراءة القرآن كلّه في ركعة:

قال الإمامُ الذهبي: صحَّ من وجوهٍ أن عثمان قرأ القرآن كله في ركعة.(٢)

وعن هلال بن يساف، قال دخل سعيد بن جبير الكعبة فقرأ القرآن في ركعة.(٣)

ـــ وقال الإمام الذهبي:

قد رويَ من وجهين أن أبا حنيفة قرأ القرآن كله في ركعة.(٤)

ـــ ويحكى أن العسَّال ما كان يجلس لإملاء الحديث، ولا يمسُّ جزءاً إلا على طهارة، وأنه كان مرة مع صهره فدخل مسجداً، وشرع في الصلاة فختم القرآن في ركعة.(٥)

ـــ وقال ابن خَفيف:

كنت في بدايتي ربما أقرأ في ركعة واحدة عشرة آلاف "قل هو الله أحد" وربما كنت أقرأ في ركعة القرآن كلّه.(٦)

---

(١) انظر السير: (عبدالله بن المبارك) ٨/٣٧٨-٤٢١، وانظر النـزهة: ٧/٧٦٩.

(٢) انظر السير: عثمان بن عفان.

(٣) المصدر السابق: ٤/٣٢١-٣٤٣.

(٤) انظر السير: ٦/٣٩٠-٤٠٤.

(٥) انظر السير: ١٦/٦-١٥.

(٦) المصدر السابق: ١٦/٣٤٢-٣٤٧.

عن عائشةَ -رضي الله عنها- قالت:

استبطأني رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال ﷺ: "ما حَبَسَكِ؟".

قلتُ: إن في المسجد لأحسن من سمعت صوتاً بالقرآن، فأخذ رداءه، وخرج يسمعه، فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة فقال ﷺ :"الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك".(١)

وعن أنس ﷺ قال:

إن أبا موسى الأشعري قرأ ليلةً، فقمن أزواج النبي ﷺ يستمعن لقراءته فلما أصبح أُخبر بذلك فقال: لو علمت لحبَّرت تحبيراً، ولشوَّقت تشويقاً.(٢)

وقال سعيد بن عبدالعزيز: حدثني أبو يوسف حاجب معاوية ﷺ أن أبا موسى الأشعري قدم على معاوية، فنزل في بعض الدور بدمشق، فخرج معاوية في الليل ليستمع قراءته.(٣)

وعن أبي سلمة: كان عمر إذا جلس عنده أبو موسى ربما قال له: ذكِّرْنا يا أبا موسى فيقرأ.(٤)

وقال أبو عثمان النهدي:

ما سمعتُ مزماراً ولا طُنْبوراً ولا صَنْجاً أحسنَ من صوت أبي موسى الأشعري، إنْ كان ليصلي بنا فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته.(٥)

وعن مسروق قال:

خرجنا مع أبي موسى في غزاة، فَجَنَّنا الليلُ في بستان خَرِب، فقام أبو موسى يصلي، وقرأ قراءة حسنة، وقال: اللهم أنت المؤمن تحب المؤمن، وأنت المهيمن تحب المهيمن، وأنت السلام تحب السلام.(٦)

وعن أبي نضرة قال عمر لأبي موسى:

شَوِّقْنا إلى ربنا فقرأ، فقالوا: الصلاة.

فقال: أَوَلَسْنا في صلاة.(٧)

---

(١) انظر السير: ١/١٦٧-١٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر السير: ٢/٣٨٠-٤٠٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

ـــ وعن علقمة، قال:

كنت رجلاً قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان ابن مسعود يرسل إليّ، فأقرأ عليه، فإذا فرغت من قراءتي قال: زِدْنا فداك أبي وأمي.[1]

ـــ وعن الأعمش قال:

كان يحيى بن وَثّاب من أحسن الناس قراءة، ربما اشتهيت أن أقبل رأسه من حسن قراءته، وكان إذا قرأ لا تُسمع في المسجد حركة، كأنْ ليس في المسجد أحد.[2]

وكان عبدالرحمن بن بشْر موصوفاً بطيب الصوت، قال مكي بن عبدان: كان عبدالله بن طاهر الأميرُ يحضر بالليل متنكراً إلى مسجد عبدالرحمن ليسمع قراءته.

قال الإمام الذهبي في ترجمة عاصم بن أبي النَّجُود:

انتهت إليه رئاسة الإقراء بعد أبي عبدالرحمن السُّلمي شيخه، قال أبوبكر ابنُ عياش: لما هلك أبو عبدالرحمن، جلس عاصم يُقرئُ الناس، وكان أحسنَ الناس صوتاً بالقرآن حتى كأن في حَنْجَرته جلاجل.[3]

وقال يونس:

كان ورشٌ جيد القراءة، حسن الصوت، إذا قرأ يهمز، ويمد، ويشدد، ويبين الإعراب، لا يمله سامعه.[4]

قال الذهبي في ترجمة أبي محمد بن عبدالله بن علي بن أحمد سِبْطِ أبي منصور الخياط:

وتصدر للإقراء، وصنف الكتبَ الشهيرة كـ: "المُبهِجْ"، و"الإيجاز"، و"الكفاية" وأم بمسجد ابن جَردة بِضْعاً وخمسين سنةً، وكان من أطيب الناس صوتاً بالقرآن، وختم عليه خلق كثير، وقرأ عليه النحو جماعة.[5]

قال ابن الجوزي:

لم أسمع قارئاً قطُّ أطيب صوتاً منه، ولا أحسن أداءً على كبر سنه، وكان لطيف الأخلاق، ظاهر الكياسة والطرافة، حسن المعاشرة للعوام والخواص.[6]

وقال السَّمْعاني: كان متواضعاً متودداً، حسن القراءة في المِحْراب، خصوصاً لياليَ رمضان.

---

(١) انظر السير: ٤/٥٣-٦١.

(٢) انظر السير: ٤/٣٧٩-٣٨٢.

(٣) انظر السير: ٥/٢٥٦-٢٦١. والجلاجل: الأجراس.

(٤) انظر السير: ٩/٢٥٩-٢٩٦.

(٥) انظر السير: ٢٠/١٣٠-١٣٤.

(٦) انظر السير: ٢٠/١٣٠-١٣٤.

وقال أبو الفَرَج ابن الجوزي: ما رأيت أكثر جمعاً مِن جمع جنازته.

توفي سنة إحدى وأربعين وخمس مئة.[1]

ــ وقال ابن النجار:

أكثرتُ عن حمزة بن علي ولازمته، وسمعت منه من كتب القراءات والأدب، وكان ثقة حجة نبيلاً موصوفاً بحسن الأداء وطيب النغمة، يقصده الناس في التراويح، ما رأيت قارئاً أحلى نغمةً منه، ولا أحسن تجويداً، مع عُلو سنه، وانقلاع ثنيَّته، وكان تام المعرفة بوجوه القراءات وعللها وحفظ أسانيدها وطرقها، وكانت له معرفة حسنة بالحديث، وكان دَمِثاً لطيفاً متودداً، وكان في صباه من أحْسن أهل زمانه وأظرفهم، مع صيانة ونزاهة، وكان من أحسن الشيوخ صورة، وقد أكثر الشعراء في وصفه.

توفي في سنة اثنتين وستٍّ مئة.[2]

القراءة بالألحان

معنى الألحان:

الألحان: جمع لحْن، وقد يجمع على لحون، والمراد باللحن هنا التلحين وهو: أن يتفنن القارئ في قراءته ليصدر أصواتاً مصوغة بأساليب معينة، الأمر الذي قد ينتج عنه تغيير لبنية اللفظ القرآني.[3]

سُئلَ الإمام أحمد بن حنبل عن القِراءة بالألحان، فقال: هذه بِدْعةٌ لا تُسْمَع[4].

وقال الأثرم: سألت أبا عبدالله عن القِراءَة بالألْحان، فقال:

كل شيء مُحدَثٌ فإنه لا يعجبني، إلا أن يكون صُوت الرجل لا يتكلفه.[5]

ــ قال الحافظ عبدالقادر:

---

(١) انظر السير: ٢٠/١٣٠-١٣٤.

(٢) انظر السير: ٢١/٤٤١-٤٤٢.

(٣) ينظر "التعريفات للجرجاني": ٦٦. و"النهاية في غريب الحديث": ٤/٢٤٢. و"لسان العرب" مادة ل ح ن: ١٢/٢٥٥. "المختار الصحاح للرازي": ٢٤٨. "القاموس المحيط": ٢/١٦١٥.

(٤) انظر السير: ١١/١٧٧-٣٥٨.

(٥) المصدر السابق: ١٢/٦٢٣-٦٢٨.

وكان السِّلَفيُّ آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر حتى إنه قد أزال من جواره منكرات كثيرة، ورأيته يوماً وقد جاء جماعة من المقرئين بالألحان، فأرادوا أن يقرأوا فمنعهم من ذلك، وقال: هذه القراءة بدعة، بل اقرأوا ترتيلاً، فقرأوا كما أمرهم.(١)

ـــ وقال تاج الدين السُّبكي (ت ٧٧١) رحمه الله تعالى:

القراءة بالألحان جائزة ما لم يُفْرِطْ بحيث يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً.(٢)

وحاصل أمر القراءة بالألحان -جمعاً بين أقوال أئمة الإسلام- أن القارئ يشرع له أن يقرأ بطبيعته التي خُلق عليها، فإن أراد القراءة بالألحان المحدثة مع المحافظة على التجويد فهذا قد كرهه كثير من الأئمة، وإن قرأ بالألحان وأخلّ بالتجويد فهو آثم، والله أعلم.(٣)

---

(١) المصدر السابق: ٢١/٥-٣٩.

(٢) "المختار من طبقات الشافعية الكبرى": ٩٢.

(٣) انظر للتفصيل "مجموع فتاوى القرآن الكريم": ٣/١١٣٩-١١٧٩.

المبحث السابع والعشرون: أحكام متعلقة بقراءة القرآن العظيم[1]

أ. القراءة في الصلاة:

ما يجب من القراءة في الصلاة:

ذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى أن قراءة الفاتحة ركن من أركان الصلاة، فتجب قراءتها في كل ركعة من كل صلاة، فرضاً أو نفلاً، جهرية كانت أو سرية، لقول النبي ﷺ: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"، وفي رواية: "لا تجزئ صلاة لا يقرأ الرجل فيها بفاتحة الكتاب"[2].

وذهب الحنفية إلى أن ركن القراءة في الصلاة يتحقق بقراءة آية من القرآن لقوله تعالى:

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[3].

أما قراءة الفاتحة فهي من واجبات الصلاة وليست بركن.

وهذا عند أبي حنيفة، وقال أبو يوسف ومحمد: أدنى ما يجزئ من القراءة في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة.

ما يسن من القراءة في الصلاة:

ذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى أنه يُسَنّ للمصلي أن يقرأ شيئاً من القرآن بعد الفاتحة.

كما ذهب الحنفية إلى أن قراءة أقصر سورة من القرآن أو ما يقوم مقامها بعد الفاتحة واجب وليس بسنة، فإن أتى بها انتفت الكراهة التحريمية.[4]

ورأي الجمهور -في كل ما سبق- أقوى وأصح استدلالاً.

ما يكره من القراءة وما يجوز في الصلاة:

ذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى جواز قراءة سورة مخصوصة في الصلاة، بل استحب الشافعية قراءة السجدة والإنسان في صبح الجمعة، وعن أبي إسحاق وابن أبي هريرة من الشافعية لا تستحب المداومة عليهما ليعرف أن ذلك غير واجب.

قال الحنابلة: لا يكره ملازمة سورة يُحسن غيرها مع اعتقاده جواز غيرها.

ـ وذهب الحنفية إلى أنه يكره أن يوقت بشيء من القرآن لشيء من الصلوات كالسجدة والإنسان لفجر الجمعة، والجمعة والمنافقين للجمعة؛ وذلك حتى لا يعتقد العامة وجوب قراءة تلك السور في تلك

---

(١) استقيت أكثر هذا المبحث من "الموسوعة الفقهية".

(٢) حديث: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"، أخرجه البخاري (فتح الباري ٢/٢٣٧)، ومسلم (١/٢٩٥) من حديث عبادة بن الصامت، والرواية الأخرى أخرجها الدارقطني (١/٣٢٢)، وصحح إسنادها.

(٣) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٤) "الموسوعة الفقهية": ٣٣/٤٧-٤٨.

الأوقات، قال الكمال بن الهمام: المداومة مطلقاً مكروهة ... لإيهامه التعيين، كما يستحب أن يقرأ بذلك أحيانا تبركاً بالمأثور.

ـــ وكره مالك الاقتصار على بعض السورة في إحدى الروايتين عنه.

كما يكره عند الأكثر من الحنفية أن يقرأ آخر سورة في كل ركعة، ويجوز أن يقرأ في الركعتين آخر سورة واحدة.

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أنه لا يكره قراءة بعض السورة، لعموم قوله تعالى: ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ ﴾(١)، لما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ: "كان يقرأ في الأولى من ركعتي سنة الفجر قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾(٢)، وفي الثانية قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ﴾(٣).

لكن صرح الشافعية بأن السورة الكاملة أفضل من قدرها من طويلة، لأن الابتداء بها والوقف على آخرها صحيحان بالقطع بخلافهما في بعض السورة، فإنهما يخفيان، و محله في غير التراويح، أما فيها فقراءة بعض الطويلة أفضل، وعللوه بأن السنة فيها القيام بجميع القرآن، بل صرحوا بأن كل محل ورد فيه الأمر بالبعض فالاقتصار عليه أفضل كقراءة آيتي البقرة وآل عمران في ركعتي الفجر.

وصرح الحنفية بأنه إذا قرأ المصلي سورة واحدة في ركعتين فالأصح أنه لا يكره، لكن لا ينبغي أن يفعل، ولو فعل لا بأس به.

وصرحوا -أيضاً- بكراهة الانتقال من آية من سورة إلى آية من سورة أخرى، أو من هذه السورة وبينهما آيات.

وصرح الحنابلة بكراهة قراءة كل القرآن في فرض واحد لعدم نقله وللإطالة، ولا تكره قراءته كله في نفل؛ لأن عثمان ﷺ كان يختم القرآن في ركعة.

ولا تكره قراءة القرآن كله في الفرائض على ترتيبه.

قال حرب: قلت لأحمد: الرجل يقرأ على التأليف في الصلاة، اليوم سورة وغداً التي تليها؟ قال: ليس في هذا شيء، إلا أنه روي عن عثمان أنه فعل ذلك في المفصل وحده.

ما يحرم من القراءة في الصلاة:

نص الحنفية على أن المصلي لو ترك ترتيب السور لا يلزمه شيء مع كونه واجباً، لأنه ليس واجباً أصلياً من واجبات الصلاة.

---

(١) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٤، والحديث أخرجه مسلم (٥٠٢/١).

وصرح المالكية بحرمة تنكيس الآيات المتلاصقة في ركعة واحدة[1]، وأنه يبطل الصلاة، لأنه ككلام أجنبي.

ونص الشافعية على أنه يجب أن يأتي بالفاتحة مرتبة فإذا بدأ بنصفها الثاني لم يعتد به مطلقاً سواء بدأ به عامدا أم ساهياً ويستأنف القراءة، هذا ما لم يغير المعنى، فإن غير المعنى بطلت صلاته.

كما صرح الحنابلة بحرمة تنكيس كلمات القرآن وتبطل الصلاة به، قالوا: لأنه يصير بإخلال نظمه كلاماً أجنبياً يبطل الصلاة عمده وسهوه، كما صرحوا بحرمة القراءة عما يخرج عن مصحف عثمان لعدم تواتره ولا تصح صلاته.

الجهر والإسرار في القراءة:

ذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى أنه يسن للإمام أن يجهر بالقراءة في الصلاة الجهرية: كالصبح والجمعة والأوليين من المغرب والعشاء، ويُسِرّ في الصلاة السرية.

وذهب الحنفية إلى وجوب الجهر على الإمام في الصلاة الجهرية، والإسرار في الصلاة غير الجهرية.

ويرى الحنفية والحنابلة -على المذهب- أن المنفرد يخير فيما يجهر به إن شاء جهر وإن شاء خافت، والجهر أفضل عند الحنفية.

واشترط الحنفية والشافعية والحنابلة لاعتبار القراءة أن يسمع القارئ نفسه، فلا تكفي حركة اللسان من غير إسماع، لأن مجرد حركة اللسان لا يسمى قراءة بلا صوت، لأن الكلام اسم لمسموع مفهوم.

و لم يشترط المالكية أن يسمع نفسه وتكفي عندهم حركة اللسان، أما إجراؤها على القلب دون تحريك اللسان فلا يكفي، لكن نصُّوا على أن إسماع نفسه أولى مراعاة لمذهب الجمهور.

قلت: وهذه مسألة مهمة؛ إذ إن كثيراً من الناس يقرأ بعينيه فقط، وهذا لا يُعد قارئاً عند جمهور العلماء.

اللحن في القراءة:

اتفق الفقهاء على أن اللحن في القراءة إن كان لا يغير المعنى فإنه لا يضر وتصح الصلاة معه.

واختلفوا في اللحن الذي يغير المعنى:

فذهب الحنفية إلى أن اللحن إن غيّر المعنى تغييراً فاحشاً بأن قرأ: وعصى آدمَ ربه، بنصب الميم ورفع الرب وما أشبه ذلك فسدت صلاته في قول المتقدمين.

وقال المتأخرون:

لا تفسد صلاته.

وما قاله المتأخرون أوسع، لأن الناس لا يميزون بين إعراب وإعراب، والفتوى على قول المتأخرين.

وذهب المالكيـــة في المعتمد عندهم إلى أن اللحن ولو غيّر المعنى لا يبطل الصلاة، وسواء ذلك في الفاتحة أو غيرها من السور.

---

(١) يعني أن يقرأ من آخر الصفحة إلى أولها مثلاً.

وذهب الشافعية إلى أن اللحن إذا كان يغيّر المعنى فإنه لا يضر في غير الفاتحة إلا إذا كان عامداً عالماً قادراً، وأما في الفاتحة فإن قدر وأمكنه التعلم لم تصح صلاته، وإلا فصلاته صحيحة.

ونص الحنابلة على أن اللحن إن كان يحيل المعنى فإن كان له القدرة على إصلاحه لم تصح صلاته، لأنه أخرجه عن كونه قرآناً، وإن عجز عن إصلاحه قرأ الفاتحة فقط التي هي فرض القراءة لحديث: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"(١)، ولا يقرأ ما زاد عن الفاتحة، فإن قرأ عامداً بطلت صلاته ويكفر إن اعتقد إباحته، وإن قرأ نسياناً أو جهلاً أو خطأً لم تبطل صلاته.

قلت: ولعل مذهب الشافعية أعدل المذاهب في هذه المسألة، والله أعلم.

قراءة المأموم خلف الإمام:

اختلف الفقهاء في قراءة المأموم خلف الإمام.

فذهب المالكية والحنابلة إلى أنه لا تجب القراءة على المأموم سواء كانت الصلاة جهرية أو سرية لقول النبي ﷺ: "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة"(٢).

ونص المالكية والحنابلة على أنه يستحب للمأموم قراءة الفاتحة في السرية.

وذهب الحنفية إلى أن المأموم لا يقرأ مطلقاً خلف الإمام حتى في الصلاة السرية، ويكره تحريماً أن يقرأ خلف الإمام، فإن قرأ صحت صلاته في الأصح.

قالوا: ويستمع المأموم إذا جهر الإمام وينصت إذا أَسَرّ.

وذهب الشافعية إلى وجوب قراءة الفاتحة على المأموم في الصلاة مطلقاً سرية كانت أو جهرية، لقول النبي ﷺ: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"، وقوله ﷺ: "لا تجزئ صلاة لا يقرأ الرجل فيها بفاتحة الكتاب".(٣)

وقد نص الشافعية والحنابلة على كراهة قراءة المأموم حال جهر الإمام، واستثنى الشافعية حال ما إذا كان يخاف فوت بعض الفاتحة.

ونص الشافعية -أيضاً- على أن مَن علم أن إمامه لا يقرأ السورة أو إلا سورة قصيرة ولا يتمكن من إتمام الفاتحة فإنه يقرأها مع الإمام.

ويستحب للمأموم أن يقرأ في سكتات الإمام أو إذا كان لا يسمع الإمام لبعده أو لصمم.

قال الحنابلة: يستحب أن يقرأ في سكتات الإمام الفاتحة.

القراءة في الركوع والسجود:

اتفق الفقهاء على كراهة القراءة في الركوع والسجود، لقول النبي ﷺ:

---

(١) حديث: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" أخرجه البخاري (فتح الباري ٢٥١/١٣)، ومسلم (٩٧٥/٢).

(٢) حديث: "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" أخرجه ابن ماجة (٢٧٧/١) من حديث جابر بن عبدالله وضعف إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة (١٧٥/١).

(٣) سبق تخريجه قريباً.

"ألا وإني نُهيتُ أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم"[1].

وعن علي ﷺ قال: "نهاني رسول الله ﷺ عن قراءة القرآن وأنا راكع أو ساجد"[2].

ولأن الركوع والسجود حالتا ذل في الظاهر، والمطلوب من القارئ التلبس بحالة الرفعة والعظمة ظاهراً تعظيماً للقران.

قلت: وهذا تعليل عليل -عندي- فالمسلم لا تصلح له الرفعة والعظمة في الصلاة بحال، فهو فيها ذليل بين يدي ربه تعالى، ويكفي في التعليل أن نقول إنا نُهينا عن القراءة في الركوع والسجود، والعلة الله أعلم بها، أي تعبدية.

قال الزركشي من الشافعية:

محل الكراهة ما إذا قصد بها القراءة، فإن قصد بها الدعاء والثناء فينبغي أن يكون كما لو قنت بآية من القرآن.[3]

قراءة القرآن بغير العربية في الصلاة:

ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية في الصلاة مطلقاً سواء قدر على القراءة بالعربية أو عجز، وتفسد بذلك.

ولأن ترجمة القرآن ليست قرآناً؛ لأن القرآن هو هذا النظم المعجز، وبالترجمة يزول الإعجاز فلم تَجُزْ، وكما أن الشعر يخرجه ترجمته عن كونه شعراً فكذا القرآن، إضافة إلى أن الصلاة مبناها على التعبد والاتباع والنهي عن الاختراع وطريق القياس مفسدة فيها.

وذهب أبو حنيفة إلى جواز قراءة القرآن في الصلاة بالفارسية وبأي لسان آخر، لقوله الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4]، ولم يكن فيها بهذا النظم[5]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[6]، فصحف إبراهيم كانت بالسُريانية، وصحف موسى بالعبرانية فدل على كون ذلك قرآناً، لأن القرآن هو النظم والمعنى جميعاً حيث وقع الإعجاز بهما.

وذهب أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة إلى أنه لا تجوز القراءة بغير العربية -إذا كان يحسن العربية- لأن القرآن اسم لمنظوم عربي لقـــول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[7]، وقال تعالى:

---

(١) حديث: "ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً ..." أخرجه مسلم (١/٣٤٨) من حديث ابن عباس.

ومعنى قَمِن: أي جدير وحقيق.

(٢) حديث: "نهاني رسول الله ﷺ عن قراءة القرآن وأنا راكع أو ساجد"، أخرجه مسلم (١/٣٤٩).

(٣) يعني لا بأس بالقراءة إن أراد بها الدعاء.

(٤) سورة الشعراء: الآية ١٩٦.

(٥) أي لم تكن الكتب قبل القرآن العربية.

(٦) سورة الأعلى: الآيتين ١٨-١٩.

(٧) سورة الزخرف: الآية ٣.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[1]، والمراد نظمه، ولأن المأمور به قراءة القرآن، وهو اسم للمنـــزل باللفظ العربي المنظوم هذا النظمَ الخاصَ المكتوب في المصاحف المنقول إلينا نقلاً متواتراً، والأعجمي إنما يسمى قرآناً مجازاً ولذا يصح نفي اسم القرآن عنه.

والفتوى عند الحنفية على قول الصاحبين، ويروى رجوع أبي حنيفة إلى قولهما.

وقد اتفق الثلاثة -أبو حنيفة وصاحباه- على جواز القراءة بالفارسية وصحة الصلاة عند العجز عن القراءة بالعربية.

القراءة من المصحف في الصلاة:

ذهب الشافعية والحنابلة إلى جواز القراءة من المصحف في الصلاة[2]، قال أحمد:

لا بأس أن يصلي بالناس القيام وهو ينظر في المصحف، قيل له: الفريضة؟ قال: لم أسمع فيها شيئاً.

وسئل الزهري عن رجل يقرأ في رمضان في المصحف، فقال: كان خيارنا يقرأون في المصاحف.

وفي شرح روض الطالب للشيخ زكريا الأنصاري:

قرأ في مصحف -ولو قلب أوراقه أحياناً- لم تبطل، أي الصلاة، لأن ذلك يسير أو غير متوال لا يُشْعِرُ بالإعراض، والقليل من الفعل الذي يبطل كثيره إذا تعمده بلا حاجة مكروه.

وكره المالكية القراءة من المصحف في صلاة الفرض مطلقاً سواء كانت القراءة في أوله أو في أثنائه، وفرقوا في صلاة النفل بين القراءة من المصحف في أثنائها وبين القراءة في أولها، فكرهوا القراءة من المصحف في أثنائها لكثرة اشتغاله به، وجوزوا القراءة من غير كراهة في أولها، لأنه يغتفر فيها ما لا يغتفر في الفرض.

وذهب أبو حنيفة إلى فساد الصلاة بالقراءة من المصحف مطلقاً، قليلاً كان أو كثيراً، إماماً أو منفرداً، أمياً لا يمكنه القراءة إلا منه أوْ لا.

ب. القراءة خارج الصلاة:

حكم قراءة القرآن:

يستحب الإكثار من قراءة القرآن خـــارج الصـــلاة، لقـــول الله تعـــالى: ﴿ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ ﴾[3]، وقول النبي ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار..."[4].

قراءة القرآن على المحتضر والقبر:

ذهب الحنفية والشافعية والحنابلة إلى ندب قراءة سورة يس عند المحتضر، لقول النبي ﷺ:

"اقرأوا يس على موتاكم"[5]، أي مَن حضره مقدمات الموت.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢.

(٢) يعني في التطوع فقط.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٣.

(٤) حديث: "لا حسد إلا في اثنتين..." أخرجه البخاري "فتح الباري": ٥٠٢/١٣، و"مسلم": ٥٥٨/١، من حديث ابن عمر، واللفظ لمسلم.

(٥) أخرجه أبو داود: ٤٨٩/٣، ونقل ابن حجر في التلخيص: ١٠٤/٢ عن ابن القطان أنه أعله بالاضطراب والوقف.

كما ذهبوا إلى استحباب قراءة القرآن على القبر، لما رُويَ عن أنس مرفوعاً: "من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم وكان له بعدد من دفن فيها حسنات"(١)، ولما صح عن ابن عمر أنه أوصى إذا دفن أن يُقرأ عنده بفاتحة البقرة وخاتمتها.

وذهب المالكية إلى كراهة قراءة القرآن عند المحتضر وعلى القبر.

قراءة القرآن للميت وإهداء ثوابها له:

ذهب الحنفية والحنابلة إلى جواز قراءة القرآن للميت وإهداء ثوابها له.

وقال الإمام أحمد: الميت يصل إليه كل شيء من الخير؛ للنصوص الواردة فيه، ولأن الناس يجتمعون في كل مِصْرٍ ويقرأون ويهدون لموتاهم من غير نكير فكان إجماعاً.

وذهب المتقدمون من المالكية إلى كراهة قراءة القرآن للميت وعدم وصول ثوابها إليه، لكن المتأخرون على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر وجعل الثواب للميت ويحصل له الأجر.

وقال ابن هلال:

الذي أفتى به ابن رشد وذهب إليه غير واحد من أئمتنا الأندلسيين أن الميت ينتفع بقراءة القرآن الكريم ويصل إليه نفعه ويحصل له أجره إذا وهب القارئ ثوابه له، وبه جرى عمل المسلمين شرقاً وغرباً، ووقفوا على ذلك أوقافاً، واستمر عليه الأمر منذ أزمنة سالفة.

والمشهور من مذهب الشافعي أنه لا يصل ثواب القراءة إلى الميت.

وذهب بعض الشافعية إلى وصول ثواب القراءة للميت، قال سليمان الجمل:

ثواب القراءة للقارئ، ويحصل مثله أيضاً للميت لكن إن كان بحضرته، أو بنيته، أو يجعل ثوابها له بعد فراغها على المعتمد في ذلك.

الاستئجار على قراءة القرآن:

اختلف الفقهاء في جواز الاستئجار لقراءة القرآن وأخذ الأجرة عليها:

فذهب المالكية والشافعية إلى جواز الاستئجار على قراءة القرآن.

قال الشافعية: وإذا قرأ جنباً –ولو ناسياً– لا يستحق أجرة.

وذهب الحنفية والحنابلة إلى أنه لا يصح الاستئجار على القراءة.

الاجتماع لقراءة القرآن:

صرح الشافعية والحنابلة بأن الاجتماع لقراءة القرآن مستحب، لما روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"(٢).

---

(١) أورده الزبيدي في "إتحاف السادة": ١٧٣/١٠ وعزاه إلى عبدالعزيز صاحب الخَلاَّل.

قلت: والحديث غير صحيح.

(٢) أخرجه مسلم: ٢٠٧٤/٤.

وروى ابن أبي داود أن أبا الدرداء ﷺ كان يدرس القرآن مع نفر يقرأون جميعاً.

قال الرحيباني من الحنابلة:

وكره أصحابنا قراءة الإدارة، وهي أن يقرأ قارئ ثم يقطع، ثم يقرأ غيره بما بعد قراءته، وأما لو أعاد ما قرأه الأول وهكذا فلا يكره، لأن جبريل كان يدارس النبي ﷺ القرآن برمضان.

وحكى ابن تيمية عن أكثر العلماء أن قراءة الإدارة حسنة كالقراءة مجتمعين بصوت واحد.

وقال النووي عن قراءة الإدارة:

هذا جائز حسن، وقد سئل مالك رحمه الله تعالى عنه فقال: لا بأس به، وصوبه البناني والدسوقي.

لكن صرح الحنفية والمالكية بكراهة قراءة الجماعة معاً بصوت واحد لتضمنها ترك الاستماع والإنصات وللزوم تخليط بعضهم على بعض.

أماكن وأحوال القراءة:

أ. الأماكن التي تكره فيها قراءة القرآن:

يستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحب جماعة من العلماء أن تكون القراءة في المسجد لكونه جامعاً للنظافة وشرف البقعة، قاله النووي.

وصرح فقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة بكراهة قراءة القرآن في المواضع القذرة، واستثنى المالكية الآيات اليسيرة للتعوذ ونحوه.

قال الحنفية: تكره القراءة في المسلخ والمغتسل ومواضع النجاسة.

ـ واختلفوا في القراءة في الحمام[1]، فذهب الشافعية إلى جوازها من غير كراهة، وقال المالكية بكراهتها إلا الآيات اليسيرة للتعوذ ونحوه.

وقال الحنفية: القراءة في الحمام إن لم يكن فيه أحد مكشوف العورة وكان الحمام طاهراً تجوز جهراً وخفية، وإن لم يكن كذلك فإن قرأ في نفسه فلا بأس به ويكره الجهر.

ـ وكره أبو حنيفة القراءة عند القبور، وأجازها محمد وبقوله أخذ مشايخ الحنفية لورود الآثار به.

ـ ونص الحنابلة على كراهة القراءة بأسواق يُنادى فيها ببيع، ويحرم رفع صوت القارئ بها، لما فيه من الامتهان للقرآن.

ب. الأحوال التي تجوز فيها قراءة القرآن والتي تكره:

ذهب الحنفية والشافعية إلى جواز القراءة في الطريق إذا لم يلته عنها صاحبها، فإن التهى صاحبها عنها كُرِهت.

قال في "غنية المتملي": القراءة ماشياً أو وهو يعمل عملاً إن كان منتبهاً لا يشغل قلبه المشي والعمل جائزة وإلا تكره.

وذهب المالكية إلى جواز قراءة القرآن الكريم للماشي في الطريق والراكب من غير كراهة.

(١) المقصود به الحمام التركي الذي يستعمل للاغتسال لا بيت الخلاء فإن القراءة فيه حرام.

وخص المالكية ذلك للماشي من قرية إلى قرية أو إلى حائطه[1]، وكرهوا القراءة للماشي إلى السوق، والفرق أن الماشي للسوق في قراءته ضرب من الإهانة للقرآن بقراءته في الطرقات، وليس كذلك الماشي من قرية إلى قرية، لأن قراءته معينة له على طريقه.

ـــ وأجاز الفقهاء قراءة القرآن للمضطجع، لما روت عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت:

"كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض ويقرأ القرآن" وفي رواية: "يقرأ القرآن ورأسه في حجري"[2].

قال الحنفية: ويضم رجليه لمراعاة التعظيم بحسب الإمكان.

ـــ وقالوا: يجب على القارئ احترام القرآن بأن لا يقرأه في الأسواق ومواضع الاشتغال، فإذا قرأه فيهما كان هو المضيعَ لحرمته فيكون الإثم عليه دون أهل الاشتغال دفعاً للحرج في إلزامهم تركَ أسبابهم المحتاج إليها، فلو قرأ القرآن وبجنبه رجل يكتب الفقه ولا يمكن الكاتب الاستماع فالإثم على القارئ لقراءته جهراً في موضع اشتغال الناس بأعمالهم ولا شيء على الكاتب، ولو قرأ على السطح في الليل جهراً والناس نيام يأثم.

ومثل ذلك ما صرح به الحنابلة من كراهة القراءة بأسواق ينادى فيها ببيع، ويحرم على القارئ رفع الصوت بها.

ـــ وصرح النووي بكراهة القراءة للناعس، قال: كره النبي ﷺ القراءة للناعس مخافة من الغلط.

ـــ ونص الحنابلة على كراهة القراءة حال خروج الريح، فإذا غلبه الريح أمسك عن القراءة حتى يخرجه ثم يشرع بها، قال النووي: ينبغي أن يمسك عن القراءة حتى يتكامل خروجه ثم يعود إلى القراءة، وهو أدب حسن، وإذا تثاءب أمسك عن القراءة حتى ينقضي التثاؤب ثم يقرأ.

قراءة الكتب التي لها أصل سماويّ قبل التحريف:

نص الحنابلة على أنه لا يجوز النظر في كتب أهل الكتاب؛ لأن النبي ﷺ غضب حين رأى مع عمر صحيفة من التوراة.

ومثل الحنابلة الشافعية حيث نصوا على عدم جواز الاستئجار لتعليم التوراة والإنجيل وعدوه من المحرمات.[3]

قلت: أرجو إن كانت قراءتها ليفهم القارئ ما هم فيه من ضلال فيحمد الله على الهداية وكان حسن الفهم لدينه، أو إن كان من أهل العلم فقرأ حتى يُحسن المناظرة أنها لا بأس بها -إن شاء الله تعالى- وقد نفع الله -تعالى- كثيراً بالشيخ الجنوب إفريقي أحمد ديدات رحمه الله تعالى، وهدى الله على يديه خلقاً لا يحصون، وقد كان حافظاً للتوراة والإنجيل والقرآن، كثير الاطلاع على تلك الكتب، خبيراً بما فيها من ضلال وتحريف، ولم يزل كذلك علماء الإسلام منذ زمن طويل إلى الآن، منهم الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى- وقد ظهرت معرفته بكتب أهل الكتاب في كتابه "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى"، وكذلك الإمام الرازي وله كتاب "مناظرة في الرد على النصارى" مشهور متداول في هذا الباب، وغيرهما من أهل العلم قديماً وحديثاً لا يُحصون عدداً، فمن كان غرضه كغرضهم، وكان من أهل العلم جاز له الاطلاع على كتب أهل الكتاب، والله أعلم.

---

(١) أي بستانه.

(٢) أخرجه البخاري "فتح الباري": ٤٠١/١، والرواية الأخرى لمسلم: ٢٤٦/١.

(٣) "الموسوعة الفقهية": ٣٣/٤٩-٦٥.

المبحث الثامن والعشرون: ترجمة معاني القرآن العظيم

اختلف الفقهاء في جواز قراءة القرآن في الصلاة بغير العربية، فذهب الجمهور إلى أنه لا تجوز القراءة بغير العربية سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن.

ويرى أبو حنيفة جواز القراءة بالفارسية وغيرها من اللغات سواء كان يحسن العربية أوْ لا، وقال أبو يوسف ومحمد لا تجوز إذا كان يحسن العربية، لأن القرآن اسم لمنظوم عربي لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[1]، والمراد نظمه، وقد سبق بعض هذا في المبحث السابق من هذا الكتاب.

وأما ترجمة القرآن خارج الصلاة، وبيان معناه للعامة، ومَن ليس له فهم يقوى على تحصيل معناه، فهو جائز باتفاق أهل الإسلام.

وتكون تلك الترجمة عبارة عن معنى القرآن وتفسيراً له بتلك اللغة[2].

قلت: وبهذا الاعتبار -أي أن الترجمة هي ترجمة للمعاني فقط- نخرج من خلاف طويل بدأ في بدايات القرن الفائت حول جواز الترجمة، فقد عارض الترجمةَ جماعةٌ من العلماء، وألف في المنع الشيخ محمد سليمان المصري كتابه: "حدث الأحداث في الإسلام" ولو قيل بترجمة المعاني فقط لانتفى الخلاف؛ وذلك لأن المسلمين مجمعون على أن القرآن نفسه لا يمكن أن يترجم ولا يستطيع ذلك أحد؛ لأن إعجازه بلفظه العربي، وهذا لا ينقل لأي لغة، لكن يمكن نقل المعاني فقط دون الألفاظ العربية إلى غيرها من اللغات، والله أعلم.

ـــ وقد ثبتت فائدة ترجمة معاني القرآن العظيم التي جرت في القرن الماضي؛ فقد قرأ تلك التراجم مئات من الملايين التي يصعب حصرها، وهدى الله -تعالى- بها بشراً لا يُحصون، ودخلوا في دين الله -تعالى- وصاروا دعاة إلى الله سبحانه، وهدى به أيضاً وثبت مئات الملايين من المسلمين الذين لا يحسنون العربية ولا يقدرون على قراءة القرآن، فلله الحمد والمنة.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣.

(٢) "الموسوعة الفقهية" ٣٩/٣٣.

المبحث التاسع والعشرون: واجبنا نحو القرآن العظيم

بعد النظر في كل ما سبق أن أوردته في المباحث الثمانية والعشرين السابقة أخلص إلى سؤال مهم يتبادر إلى ذهن مَن قرأ الكتاب: **ما هو واجبنا تجاه القرآن العظيم؟**

هذا سؤال مهم بل هو أعظم سؤال يتعلق بالقرآن العظيم، وأرى -والله تعالى أعلم- أن واجبنا يتلخص في النقاط التالية:

أولاً: الإيمان الكامل، واليقين الجازم بأن القرآن العظيم هو كلام الله -تعالى- الذي لم يتغير ولم يتبدل، ولم يُزد فيه شيء ولم يُنقص، بل هو هو كما أنزله الله -تعالى- الذي قال في القرآن العظيم: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾[2]، ومن اعتقد أن في القرآن تحريفاً وتغييراً، أو زيادة ونقصاناً، فقد خرج من ملة الإسلام.

ثانياً: التأدب التام مع القرآن العظيم:

ينبغي على كل مسلم أن يبذل جهده في التأدب التام مع القرآن العظيم، باحترامه وتعظيمه، والشعور بأنه كلام الله -تعالى- الذي لم ينـزل مثله قط، وقد سبق إيراد جملة من قواعد الأدب مع القرآن العظيم في المبحث الرابع من هذا الكتاب.

ثالثاً: فهم القرآن العظيم:

ينبغي لكل مسلم أن يحاول فهم القرآن العظيم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يحاول قراءة تفسير -ولو مختصراً- حتى يفهم المعاني التي هي غريبة عليه، فهذا الفهم يساعده على ما أريد ذكره في الفقرة المقبلة.

رابعاً: تدبر القرآن العظيم:

ومعنى التدبر هو النظر في آيات القرآن العظيم نظراً يؤدي بالناظر إلى معرفة ما يجب عليه إزاءه، ومن ثَمّ يحاول أن يمتثل الأوامر التي أمره الله -تعالى- بها، وأن ينـزجر عن الزواجر التي زجره الله -تعالى- عنها، وأن ينظر في سنن القرآن الكونية ويستفيد منها في حياته الخاصة والعامة، قال تعـالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3].

وقد سبق القول في التدبر في صلب الكتاب، وإنما أنا أذكر به ها هنا في ختام المباحث.

---

(١) سورة فصلت: آية ٤٢.

(٢) سورة البقرة: آية ٢.

(٣) سورة ص: آية ٢٩.

خامساً: عدم هجر القرآن:

وهذا يعني الالتصاق بالقرآن العظيم تلاوةً، والاستشفاء به، والتبرك به، وحبه، والتقرب إلى الله -تعالى- بالاحتكام إليه وتقديمه في كل شؤون الحياة، فإن صنع المؤمن ذلك فلا يُعَد هاجراً للقرآن، إن شاء الله تعالى، قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-:

"هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تُحصِّل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾[1]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض".[2]

سادساً: التحاكم إلى القرآن:

وهذا هو واجب الأمة كلها حكاماً ومحكومين، وهو الأمر الذي لا خيار فيه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[4].

وهذا هو الذي ندعو كل الحكومات الإسلامية اليوم إليه، فلابد من التحاكم إلى القرآن، ولابد من نبذ كل ما سواه من قوانين غربية غريبة عن الناس، فإن لم تصنع الدول ذلك فلا فلاح لها ولا نجاح، والله أعلم.

---

(١) سورة الفرقان: آية ٣٠.

(٢) "الفوائد": ص ١٥٦ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ٦١٢.

(٣) سورة الأحزاب: آية ٣٦.

(٤) سورة الأنعام: آية ٥٧.

قد نظر في كتاب الله تعالى أقوام من غير المسلمين فأُعجبوا به أيما إعجاب، وبعضهم أسلم وبعضهم بقي على دينه، وقد أفصحوا عن إعجابهم بهذا القرآن بعبارات يجدر أن تُذكر هاهنا لما فيها من الفائدة:

١. قال العالم الفرنسي موريس بوكاي:

"لقد قمت بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن الكريم ومعطيات العلم الحديث فأدركت أنه لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث"[١].

٢. إبراهيم خليل أحمد[٢]:

"أعتقد يقيناً أني لو كنت إنساناً وجودياً... لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية، وجاءني نفر من الناس وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث -في كل مناحيه- لآمنت برب العزة والجبروت، خالق السموات والأرض، ولن أشرك به أحداً...".[٣]

٣. الكس لوزون[٤]:

"خلف محمد ﷺ للعالم كتاباً هو آية البلاغة، وسجل الأخلاق، وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن وقوانين الطبيعة".[٥]

٤. د.شومبس[٦]:

"ربما تعجبون من اعتراف رجل أوروبي مثلي بهذه الطريقة، فقد درست القرآن فوجدت فيه تلك المعاني العالية، والأنظمة المحكمة، والبلاغة الرائعة التي لم أجد مثلها قط في حياتي، جملة واحدة منه تغني عن مؤلفات، وهذا لاشك أكبر معجزة أتى بها محمد ﷺ عن ربه".[٧]

---

(١) "قالوا عن الإسلام": ٤٣.

(٢) قس من مواليد الإسكندرية عام ١٩١٩، يحمل شهادة عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية، عمل أستاذاً بكلية اللاهوت بأسيوط كما أرسل عام ١٩٥٤ إلى أسوان سكرتيراً عاماً للإرسالية الألمانية السويسرية، وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام. ولكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين، وأشهر إسلامه رسمياً عام ١٩٥٩.

كتب العديد من المؤلفات. أبرزها "ولا ريب محمد في التوراة والإنجيل والقرآن"، "المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي"، و"تاريخ بني إسرائيل"، ولقد سقت قصة هدايته في المبحث الثامن.

(٣) "قالوا عن الإسلام": ٤٤.

(٤) فيلسوف فرنسي.

(٥) "بالقرآن أسلم هؤلاء": ٤٧ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ١٣٦.

(٦) مستشرق ألماني.

(٧) "بالقرآن أسلم هؤلاء": ٤٧ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ١٣٦.

٥. **الكونت هنري دي كاستري[١]:**

"إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمـــي، وقـــد اعتـــرف الشـــرق قاطبـــة بأنها آيات تعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بها لفظاً ومعنى".[٢]

٦. **المسيو بيرك:**

قال في البرلمان الإنجليزي: "إن تعاليم القرآن أحكم وأعقل وأرحم تشريع عرفه التاريخ".[٣]

٧. **هير شفيلد:**

"ليس للقرآن مثيل في قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه، وإليه يرجع الفضـــل في ازدهـــار العلـــوم بكافـــة نواحيها في العالم الإسلامي".[٤]

٨. **إيرفنج[٥]:**

ــ "كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس ســلوكه، حـــتى إذا ظهـــر المســـيح عليـــه السلام اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حل القرآن مكانهما، فقد كان القـــرآن أكثـــر شمـــولاً وتفصـــيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أُدخل على هذين الكتابين مـــن تغـــيير وتبـــديل، حـــوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين، إذ إنه خاتم الكتب السماوية...".

ــ "يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء، وإلى مذاهب أخلاق سامية".[٦]

٩. **بلاشير[٧]:**

ــ "لا جرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه؛ فإنما هـــو الإعجـــاز البيـــاني واللفظـــي والجَرْس الإيقاعي في الآيات المنـــزلة في ذلك العهـــد، إن خصـــوم محمـــد ﷺ قـــد أخطـــأوا عنـــدما لم يشاؤوا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم مـــن أننـــا علـــى علـــم -اســـتقرائياً فقـــط- بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخَطَل هذا الحكم وتهافتـــه، فـــإن للآيـــات الـــتي أعـــاد

---

(١) مقدم في الجيش الفرنسي. توفي سنة ١٩٢٧.

(٢) "القرآن الكريم من منظور غربي" للدكتور عماد الدين خليل: ص ١٨ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ١٣٨.

(٣) "دفاع عن الإسلام": ٦٣ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ١٤١.

(٤) "التربية في كتاب الله" محمود عبدالوهاب ص ٥٢ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ١٤١.

(٥) واشنجتون إيرفنج w.irving.

مستشرق أمريكي. أولى اهتماماً كبيراً لتاريخ المسلمين في الأندلس.

(٦) "قالوا عن الإسلام": ٤٥.

(٧) بلاشيـــر R.L.Blachere.

ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج بالعربية في كلية الآداب بالجزائر ١٩٢٢ وعين أستاذاً لهـــا في معهد مولاي يوسف بالرباط، ثم انتدب مديراً لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط ١٩٢٤-١٩٣٥، واستدعته مدرسة اللغات الشرقية بباريس أستاذاً لكرسي الأدب العربي ١٩٣٥-١٩٥١، ونال الدكتوراه ١٩٣٦، عين أستاذاً محاضراً في السوربون ١٩٣٨، ومشرفاً على مجلة المعرفة، التي ظهرت في باريس باللغتين العربية والفرنسية، من آثاره: دراسات عديدة عن تاريخ الأدب العربي في أشهر المجلات الاستشراقية، وكتاب "تاريخ الأدب العربي" باريس ١٩٢٥، وترجمة جديدة للقرآن الكريم في ثلاثة أجزاء (بـــاريس ١٩٤٧-١٩٥٢) وغيرها.

الرسول ﷺ ذكرها في هذه السور اندفاعاً وألَقَاً وجلالة تخلف وراءها بعيداً أقوال فصحاء البشر، كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا".

ـ ".. إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من تحف، إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعارض الفظ في البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن، وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد أن رتله المؤمنون".[1]

١٠. **د. جرينيه**[2]:

"إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، والتي درستها من صغري وأعلمها جيداً فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة فأسلمت، لأنني تيقنت أن محمداً أتى بالحق الصُراح قبل ألف سنة من قبل أن يكون هناك معلم أو مدرس من البشر".

ثم قال كلاماً مهماً جداً:

"ولو أن كل صاحب فن من الفنون أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً -كما قارنت أنا- لأسلم بلا شك، إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض".[3]

١١. **القس جان باتيست أهوينمو**[4]:

"سبب إسلامي تم خلال وجودي في محاضرة عبارة عن مجادلة بين مسلم ومسيحي، ولقد اقتنعت أثناء هذه المحاضرة بسورة مريم وسورة أخرى، وبأن الإسلام هو دين الحق".[5]

١٢. **وليم موير**[6]:

"إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، المتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم هو حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا".[7]

(١) "قالوا عن الإسلام": ٤٦-٤٧.

(٢) طبيب فرنسي معروف كان عضواً في مجلس النواب الفرنسي.

(٣) "بالقرآن أسلم هؤلاء": ٧٦ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ٣٤٢.

(٤) حصل على ليسانس في علم اللاهوت، وكان قسيس كنيسة وأسلم في كوناكري عاصمة غينيا سنة ١٩٩١.

(٥) "بالقرآن أسلم هؤلاء": ٧٦ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ٣٤٢.

(٦) مستشرق بريطاني ولد سنة ١٨١٩ وتوفي سنة ١٩٠٥.

(٧) "هذا هو القرآن": ٥٥.

١٣. بوازار[١]:

ـــ "... إن القرآن لم يُقَدَّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة".

ـــ".. إن الأدوات التي يوفرها التنزيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث..".[٢]

١٤. بوتر[٣]:

ـــ ".. عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق؛ الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها، وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية، أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع، وأسلوب قاطع، لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة".

ـــ "إن المضمون الإلهي للقرآن الكريم هو المسؤول عن النهوض بالإنسان وهدايته إلى معرفة الخلق، هذه المعرفة التي تنطبق على كل عصر..".

ـــ "كيف استطاع الرسول محمد ﷺ الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لابد إذاً أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل".[٤]

١٥. بيكارد[٥]:

".. ابتعت نسخة من ترجمة سافاري (savary) الفرنسية لمعاني القرآن وهي أغلى ما أملك، فلقيت من مطالعتها أعظم متعة، وابتهجت بها كثيراً حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق علي بنوره المبارك"[٦].

---

(١) مارسيل بوازار m.poizar

مفكر، وقانوني فرنسي معاصر. أولى اهتماماً لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، وكتب عدداً من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين. ويعتبر كتابه "إنسانية الإسلام"؛ الذي انبثق عن الاهتمام نفسه، علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيز والهوى، فضلاً عن الكتابات الإسلامية نفسها.

(٢) "قالوا عن الإسلام": ٤٨-٤٩.

(٣) ديبورا بوتر D.Potter

ولدت عام ١٩٥٤، بمدينة ترافيرز، في ولاية متشيغان الأمريكية، وتخرجت من فرع الصحافة بجامعة متشيجان، اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠، بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين العاملين في أمريكا، بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة من دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان ذكراً كان أم أنثى..

(٤) "قالوا عن الإسلام": ٤٩-٥٠.

(٥) وليم بيرشل بيكارد W.B.Beckard

إنكليزي، تخرج من كانتر بوري. مؤلف وكاتب مشهور، ومن بين مؤلفاته الأدبية بالإنكليزية "مغامرات القاسم" و "عالم جديد"، شارك في الحرب العالمية الأولى وأسر، عمل فترة من الوقت في أوغندا. أعلن إسلامه عام ١٩٢٢م.

(٦) "قالوا عن الإسلام": ٥١.

١٦. حتي[١]:

ــ "إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يُقلَّد، وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن، فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى".

".. إن إعجاز القرآن لم يَحُلْ دون أن يكون أثره ظاهراً على الأدب العربي، أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نُقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الإنكليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية، إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات"[٢].

١٧. داود[٣]:

".. تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية؛ لأنني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشرعت في قراءته وتدبر معانيه، لقد استقطب جل اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الإجابة المقنعة عن سؤالي المحير: (الهدف من الخلق) في الصفحات الأولى من القرآن الكريم .. لقد قرأت الآيات (٣٠-٣٩) من سورة البقرة، وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، إن هذه الآيات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق..".

".. إن دراستي للقرآن الكريم وضحت أمام ناظري العديد من الإشكالات الفكرية، وصححت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة"[٤].

١٨. درمنغم[٥]:

ــ "للمسيح عليه السلام في القرآن مقام عال، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده، وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده، والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما

---

(١) د.فيليب حتي P.Hitti

ولد عام ١٨٨٦م، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٠٨م، ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا ١٩١٥م، وعين معيداً في قسمها الشرقي (١٩١٥-١٩١٩)، وأستاذاً لتاريخ العرب في الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩١٩-١٩٢٥)، وأستاذاً مساعداً للآداب السامية في جامعة برنستون (١٩٢٦-١٩٢٩م)، وأستاذاً ثم أستاذ كرسي ثم رئيساً لقسم اللغات والآداب الشرقية (١٩٢٩-١٩٥٤م)، حين أحيل على التقاعد، انتخب عضواً في جمعيات ومجامع عديدة.

من آثاره: "أصول الدولة الإسلامية" ١٩١٦م، "تاريخ العرب" ١٩٢٧م، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين" ١٩١٥م، "لبنان في التاريخ" ١٩١٦م، وغيرها.

(٢) "قالوا عن الإسلام": ٥٢.

(٣) عامر علي داود A.Ali David

ينحدر من أسرة برهمية، تنصرت على أيدي المبشرين الذين قدموا مع طلائع الاستعمار، كان كثير القراءة للكتب الدينية، ولما أتيح له أن يطلع على القرآن الكريم كان الجواب هو انتماءه للإسلام.

(٤) "قالوا عن الإسلام": ٥٣.

(٥) إميل درمنغم E.Dermenghem

مستشرق فرنسي، عمل مديراً لمكتبة الجزائر، من آثاره: "حياة محمد" باريس ١٩٢٩، وهو من أدق ما صنفه مستشرق عن النبي ﷺ، و"محمد والسنة الإسلامية" باريس ١٩٥٥، ونشر عدداً من الأبحاث في المجلات الشهيرة مثل: "المجلة الإفريقية"، و"حوليات معهد الدراسات الشرقية"، و"نشرة الدراسات العربية" ..إلخ.

يقول: إن عيسى عليه السلام كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر، وهو يذم مذهب القائلين بألوهية المسيح عليه السلام ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم".

ـ "سيكون القرآن حافزاً للجهاد يردده المؤمنون كما يردد غيرهم أناشيد الحرب، محرضاً على القتال جامعاً لشؤونه، محركاً لفاتري الهمم، فاضحاً للمخلفين مخزياً للمنافقين، واعداً الشهداء بجنات عدن".

ـ "كان محمد ﷺ يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مبلغ حرصه أن يكون أميناً مصغياً أو سجلاً صادقاً أو حاكياً معصوماً لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي، لكلام الله الذي هو أم الكتاب، للكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة، ولابد لكل نبي من دليل على رسالته، ولابد له من معجزة يتحدى بها، والقرآن هو معجزة محمد ﷺ الوحيدة، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال إلى يومنا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد ﷺ يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته، ولا ريب أن في كل آية منه -ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياته الخاصة- تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هناك ما يجب أن يبحث به عن سر نفوذه، وعظيم نجاحه"[١].

١٩. دينيه[٢]:

ـ"لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلينا اليوم لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد، وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر؛ الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم".

ـ ".. أحس المشركون، في دخيلة نفوسهم أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم ﷺ، وكلهم كثيراً ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الألفاظ الأخّاذة التي ألهمها إيمان سماوي، و لم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبهم لأعراض الدنيا..".

ـ "إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرضة للنسيان السريع، بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: "المعجزة الخالدة" وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه

(١) "قالوا عن الإسلام": ٥٣-٥٤.

(٢) إتيين دينيه ١٨٦٠-١٩٢٩ Et.Dinet

تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بوسعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين سنة ١٩٢٧، وحج إلى بيت الله الحرام ١٩٢٨.

الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوربيون لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة".

ـ "إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه يُحدث مثل هذا التأثير في نفوس علماء لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فماذا ترى أن يكون من قوة الحماس التي تستهوي عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟ لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سمروا فيه، أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد ﷺ ذلك الأمي الذي لم ينل حظاً من المعرفة؟ كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات.."[1].

٢٠. ديورانت[2]:

".. ظل القرآن أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرة المسلمين يستثير خيالهم، ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال، والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضاً، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية، وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحرضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسن أحوال الأرقّاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض.." [3].

٢١. ريسلر[4]:

ـ".. لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أُنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال.

ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية، ويجب أن تقرأه في لغته التي كُتب بها لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته.

ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحراً مؤثراً في النفس، حيث تزخر الأفكار قوة، وتتوهج الصور نضارة.

---

(١) "قالوا عن الإسلام": ٥٦-٥٧.

(٢) ول ديورانت WA Durant

مؤلف أمريكي معاصر، يعد كتابه "قصة الحضارة" ذو الثلاثين مجلداً، واحداً من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة، عكف على تأليفه السنين الطوال، وأصدر جزأه الأول عام ١٩٣٥، ثم تلته بقية الأجزاء، ومن كتبه المعروفة كذلك "قصة الفلسفة".

(٣) "قالوا عن الإسلام": ٥٧-٥٨.

(٤) جاك. س. ريسلر J.S.Restler

باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس.

فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمداً ﷺ كان ملهماً بجلال الله وعظمته".

ــ "كان في القرآن -فوق أنه كتاب ديني- خلاصة جميع المعارف، وظل زمناً طويلاً أول كتاب يُتخذ للقراءة إلى الوقت الذي شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية، ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية، ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية؛ إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها، ولذلك يجب أن يُقرأ القرآن في نصه الأصلي".

"إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات، إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة، وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، ... إلخ".

ــ "حقاً، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم، ولم يتعرض ما جاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات، ولا لتبديلات".

ــ "يظل القرآن طيلة القرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسلامية؛ فهو يضم بين أطرافه الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات في الفكر"[١].

٢٢. ستشيجفسكا[٢]:

"إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أمية، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات، كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة".

٢٣. سلهب[٣]:

ــ "إن الآية التي أستطيب ذكرها هي التي تنبع سماحاً إذ تقول:

---

(١) "قالوا عن الإسلام": ٥٩-٦٠.

(٢) يوجينا غيانة ستشيجفاسكا Bozena Gajana Stryzewska

باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين اختصاصيين زهاء خمس سنوات (١٩٦١-١٩٦٥) تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك، وكانت قد أنهت دراستها العليا في كلية الحقوق وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا.

(٣) نصري سلهب N.Salhab

نصراني من لبنان، يتميز بنظرته الموضوعية وتحريه للحقيقة المجردة، كما عُرف بنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي بين الإسلام والنصرانية في لبنان -كما يزعم- إن على مستوى الفكر أو على مستوى الواقع، وعبر الستينيات كتب العديد من الفصول، وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والنصرانية على السواء، متوخياً الهدف نفسه، من مؤلفاته "لقاء المسيحية والإسلام" ١٩٧٠، و"في خطى محمد" ١٩٧٠.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1].

ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم، إنها لعبارات يجدر بنا جميعاً مسيحيين ومسلمين، أن نرددها كل يوم، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء؛ لأنه البناء الذي فيه نلتقي، والذي فيه نلقى الله: فحيث تكون المحبة يكون الله، والواقع أن القرآن يذكر صراحة أن الكتب المترلة واحدة، وأن أصلها واحد عند الله، وهذا الأصل يدعى حيناً "أم الكتاب" وحيناً آخر "اللوح المحفوظ" أو "الإمام المبين".

ــ" .. إن محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فإذا بهذا الأمي يُهدي الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين".

ــ".. الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من بلاغة، ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثورة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير".

ــ " لم يُقدَّرْ لأي سِفْر[2]، قبل الطباعة، أياً كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفر له ما توفر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب".

ــ "تلك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله.."[3].

٢٤. سوسة[4]:

ــ "يرجع ميلي إلى الإسلام حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى، فولعت به ولعاً شديداً، وكنت أطرب لتلاوة آياته..".

ــ " .. الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أمر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب، وقد جاء ذلك تأييداً علمياً للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرناً على لسان النبي ﷺ.

أما الفرقان المجيد فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقاً الكتاب المقدس الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٤٦.

(٢) أي كتاب.

(٣) "قالوا عن الإسلام": ٦١-٦٢.

(٤) د. أحمد نسيم سوسة Dr. A. N. Sousa

باحث مهندس من العراق، وعضو في المجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهودياً فاعتنق الإسلام متأثراً بالقرآن الكريم، وتوفي قبل سنوات قلائل.

ترك الكثير من الدراسات في مختلف المجالات وخاصة في تاريخ الري، وفند في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة: "مفصل العرب واليهود في التاريخ"، و "في طريقي إلى الإسلام" الذي تحدث فيه عن سيرة حياته.

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[١].

ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم، إنها لعبارات يجدر بنا جميعاً مسيحيين ومسلمين، أن نرددها كل يوم، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء؛ لأنه البناء الذي فيه نلتقي، والذي فيه نلقى الله: فحيث تكون المحبة يكون الله، والواقع أن القرآن يذكر صراحة أن الكتب المترلة واحدة، وأن أصلها عند الله، وهذا الأصل يدعى حيناً "أم الكتاب" وحيناً آخر "اللوح المحفوظ" أو "الإمام المبين".

ـ" .. إن محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فإذا بهذا الأمي يُهدي الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين".

ـ".. الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من بلاغة، ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثورة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير".

ـ " لم يُقدّرْ لأي سِفْر[٢]، قبل الطباعة، أياً كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفر له ما توفر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب".

ـ "تلك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله.."[٣].

٢٤. سوسة[٤]:

ـ "يرجع ميلي إلى الإسلام حينما شرعتِ في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى، فولعت به ولعاً شديداً، وكنت أطرب لتلاوة آياته..".

ـ " .. الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أمر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب، وقد جاء ذلك تأييداً علمياً للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرناً على لسان النبي ﷺ.

أما الفرقان المجيد فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقاً الكتاب المقدس الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٤٦.

(٢) أي كتاب.

(٣) "قالوا عن الإسلام": ٦١-٦٢.

(٤) د. أحمد نسيم سوسة Dr. A. N. Sousa

باحث مهندس من العراق، وعضو في المجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهودياً فاعتنق الإسلام متأثراً بالقرآن الكريم، وتوفي قبل سنوات قلائل.

ترك الكثير من الدراسات في مختلف المجالات وخاصة في تاريخ الري، وفند في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة: "مفصل العرب واليهود في التاريخ"، و "في طريقي إلى الإسلام" الذي تحدث فيه عن سيرة حياته.

المستشرقون في هذا الباب الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهؤلاء أجانب غرباء كثيراً ما يصوبون أسهمهم الناقدة السامة نحو الإسلام، والواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلى وضوح مما لا يترك أي شك في أن الفرقان الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو تحوير، وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه ﷺ دون أن يتغير فيه حرف واحد"[1].

٢٥. فاغليري[2]:

ـ "إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلاله أنباء تتصف بيقين مطلق، أنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته، إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي، أما أسلوبه فأصيل فريد، وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدر إلينا من العصور التي سبقته، والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي.

إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر في نفسها وجَرْسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها".

ـ "إنه يكرر قصص الأنبياء عليهم السلام وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تُضعف من أثرها، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته، إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معاً -وهما صفتان لا تجتمعان عادة- حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقاً كاملاً، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ﷺ، وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينم أي منها عن أدنى موهبة شعرية".

ـ "لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة: وهي أن نصه ظل صافياً غير محرف طوال القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله، ما دام الكون".

ـ "إن هذا الكتاب، الذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقع في نفس المؤمن أيما حس بالملل، على العكس، إنه من طريق التلاوة المكررة يحبب نفسه إلى المؤمن أكثر يوماً بعد يوم، إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حساً عميقاً من المهابة والخشية. إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الإيمان، آلافاً من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفي مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الإنجيل عن ظهر قلب في أوروبة كلها".

---

(١) "قالوا عن الإسلام": ٦٢-٦٣.

(٢) لورا فيشيا فاغليري L. Veccia Vaglieri

باحثة إيطالية معاصرة، انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً، وإلى فقه العربية وآدابها.

من آثارها: "قواعد العربية" في جزءين ١٩٣٧-١٩٤١، و "الإسلام" ١٩٤٦، و"دفاع عن الإسلام" ١٩٥٢، والعديد من الدراسات في المجلات الاستشراقية المعروفة.

ـ "إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة، إن الذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون للشعوب المغلوبة -مع تخييرها بين قبوله ورفضه- كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد ﷺ أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض".

ـ "فيما يتصل بخلق الكون فإن القرآن على الرغم من إشارته إلى الحالة الأصلية وإلى أصل العالم لا يقيم أيما حد مهما يكن في وجه قوى العقل البشري، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذي تريد"[١].

٢٦. كوبلولد[٢]:

ـ "الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفاً، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته، وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب، ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال: إذا لم يكن شعراً، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخاً ولا وصفاً، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل، ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خطباً فلسفية كمحاورات أفلاطونية، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإن كان عالمياً في جملته، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته، حتى إنه يردد في كل الأصقاع، ويرتل في كل بلد تشرق عليه الشمس".

ـ "أشار الدكتور ماردريل المستشرق الفرنسي الذي كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد في كتاب غيره وسواه فقال:

"أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عز وجل وعلا، ذلك أن الأسلوب الذي ينطوي عليه كُنْهُ الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهياً، والحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره، وإن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجانب المبشرين يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن، ذلك أن هذا الأسلوب؛ الذي يفيض جزالة في اتساق منسق متجانس، كان لفعله الأثر العميق في كل سامع يفقه اللغة العربية؛ لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر أن يحاول المرء نقل تأثير هذا النثر البديع الذي لم يُسمع بمثله بلغة أخرى ..".

ـ "الواقع أن للقرآن أسلوباً عجيباً يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فحسن تأليفه، والتئام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده، قد

---

(١) "قالوا عن الإسلام": ٦٦-٦٨.

(٢) اللادي إيفلين كوبولد Lady E.Cobold

نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز وحجّت إلى بيت الله، وكتبت مذكرات عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: "الحج إلى مكة" لندن ١٩٣٤، والذي ترجم إلى العربية بعنوان: "البحث عن الله".

امتاز بسهولة ألفاظه حتى قَلّ أن تجد فيها غريباً، وهي مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشكلة منسجمة لا تحس فيها لفظاً نابياً عن أخيه، فإذا أضفت إلى ذلك سمو معانيه أدركت بلاغته وإعجازه"[١].

٢٧. كويليام[٢]:

ـ " أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية، إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية، ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة، وعلى ذلك فالقرآن يختلف مادياً عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية، بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباط عظيم في الأمور التعبدية، وهي غير معقولة وعديمة التأثير".

"لقد عثرت في دائرة المعارف العامة Pular Encyclopedia على نبذة نصها كما يأتي:

"إن لغة القرآن معتبرة بأنها من أفصح ما جاء في اللغة العربية، فإن ما فيه من محاسن الإنشاء وجمال البراعة جعله باقياً بلا تقليد ودون مثيل، أما أحكامه العقلية فإنها نقية زكية إذا تأملها الإنسان بعين البصيرة لعاش عيشة هنية"[٣].

٢٨. لاندو[٤]:

ـ "بسبب أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية إلى لغة أخرى تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئاً من روح الوحي المحمدي، والواقع أن كثيراً من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجمتهم تنوء بالتحامل والغرض، ولكن حتى أفضل ترجمة

---

(١) "قالوا عن الإسلام": ٧٢-٧٣.

(٢) عبدالله كويليام Kwelem

مفكر إنكليزي، ولد سنة ١٨٦٥، وأسلم سنة ١٨٨٧، وتلقب باسم: "الشيخ عبدالله كويليام". من آثاره: "العقيدة الإسلامية" ١٨٨٩، و "أحسن الأجوبة".

(٣) "قالوا عن الإسلام": ٧٣-٧٤.

(٤) روم لاندو R.Landau

نحّات وناقد فني إنكليزي، زار زعماء الدين في الشرق الأدنى سنة ١٩٣٧، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة ١٩٥٢-١٩٧٥، أستاذ الدراسات الإسلامية وشمالي إفريقية في "المجمع الأمريكي للدراسات الآسيوية" في سان فرانسيسكو سنة ١٩٥٣.

من آثاره: "الله ومغامرتي" ١٩٣٥، "بحث عن الغد" ١٩٣٨، "سلم الرسل" ١٩٣٩، "دعوة إلى المغرب" ١٩٥٠، "سلطان المغرب" ١٩٥١، "فرنسا والعرب" ١٩٥٣، "الفن العربي" ١٩٥٥، وغيرها.

ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقي الآسر، على الوجه الذي يرتلها به المسلم، وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئاً من روعة كلمات القرآن وقوتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصلية"(١).

٢٩. مونتاي(٢):

ـ "إنني لا أشك لحظة في رسالة محمد ﷺ، وأعتقد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه بعث للناس كافة، وأن رسالته جاءت لختم الوحي الذي نزل في التوراة والإنجيل، وأحسن دليل على ذلك هو القرآن المعجزة. فأنا أرفض خواطر بسكال العالم الأوروبي الحاقد على الإسلام والمسلمين إلا خاطرة واحدة وهي قوله: ليس القرآن من تأليف محمد ﷺ، كما أن الإنجيل ليس من تأليف مَتّى".

ـ ".. إن مثل الفكر العربي الإسلامي البعيد عن التأثير القرآني كمثل رجل أُفرغ من دمه"(٣).

٣٠. وهذا خصم من خصوم القرآن وهو وزير المستعمرات الفرنسية في الجزائر "لاكوست" يقول:

"ماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا".

وقد قال ذلك لما ظهرت بعض الفتيات الجزائريات محجبات في حفل بمناسبة مرور مائة سنة على احتلال الجزائر، فلما رأى ذلك قال هذا الكلام.(٤)

وكذلك قال وصيفه الحاكم الفرنسي في الجزائر في المناسبة نفسها:

"إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن ويتكلمون العربية".(٥)

---

(١) "قالوا عن الإسلام": ٧٥.

(٢) فنساي مونتاي: المنصور بالله الشافعي F.Montague

فرنسي، رجل بحث وترحال، اختص بدراسة القضايا الإسلامية والعربية عن كَثَب سنوات عديدة في المغرب والمشرق وإفريقية وآسيا، ونشر عشرات الأبحاث والكتب عن الإسلام والحضارة الإسلامية، وانتهى الأمر به إلى إعلان إسلامه في صيف عام ١٩٧٧.

(٣) "قالوا عن الإسلام": ٧٧-٧٨.

(٤) "قادة الغرب يقولون" لجلال العالم ص ٣١ نقلاً عن "عظمة القرآن الكريم": ١٤٣.

(٥) المصدر السابق.

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، وصل الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فتلك كانت شذرات متنوعة عن كتاب الله -تعالى- أردت بها التعريف الموجز بهذا القرآن العظيم، وإيراد مباحث عامة وخاصة يستفيد منها القارئ المبتدئ، ويتذكر بها طالب العلم المؤتسي، ويقنع بها العالم المنتهي، جعلتها تذكرةً لطيفة، في عبارات وجيزة، ضمنتها أدلة وآثاراً، وقصصاً وأخباراً، وأقوالاً لأئمة الإسلام وعلمائه، ولطائف وطرائف، أردت من ذلك كله أن أجعل الكتاب مشوقاً للقارئ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فلذلك جاء الكتاب -فيما أحسب- مناسباً في أسلوبه وعباراته، وبقي أن أسأل الله -تعالى- لهذا الكتاب القبول، وأن ينفع به العموم، وأن ينفعني به يوم العرض عليه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا والله أعلم وأحكم، وأجل وأعظم، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

تشرف بكتابته، والفراغ منه في اليوم العاشر

من شهر رجب مضر لعام ١٤٣٢هـ

محمد بن موسى الشريف

المصـــادر والمراجـــع

ـ **القرآن العظيم.**

ـ **"الإتقان في علوم القرآن"**: الحافظ السيوطي (ت ٩١١) نشر دار الكتب العلمية. بيروت.

ـ **"الأخبار العليات من الوافي بالوفيات"**: لكاتب هذا الكتاب عفا الله عنه، والوافي للإمام الصفدي رحمه الله تعالى. نشر دار الأندلس الخضراء. جدة. الطبعة الأولى سنة ١٤٣١هـ.

ـ **"الإعجاز العلمي في القرآن والسنة"**: د.عبدالله المصلح، د.عبدالجواد الصاوي. نشر الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. جدة.

ـ **"زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ"**: ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١).

نشر دار الرسالة. بيروت.

ـ **"سير أعلام النبلاء"**: الإمام الذهبي.

نشر مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الحادية عشر. ١٤١٧هـ.

ـ **"سيرة ابن هشام"** عبدالملك بن هشام (ت ٢١٨) تحقيق مجموعة من الأساتذة.

نشر دار المعرفة. بيروت. لبنان.

ـ **"عظماء أسلموا"**: الصادق أحمد عبدالرحمن برير.

نشر دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى. ١٤٣١هـ.

ـ **"عظمة القرآن الكريم"**: محمود بن أحمد الدوسري.

نشر دار ابن الجوزي. الدمام. المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى. سنة ١٤٢٦.

ـ **"قالوا عن الإسلام"**: د. عماد الدين خليل.

نشر الندوة العالمية للشباب الإسلامي. ١٤١٢.

ـ **"في ظلال القرآن"**: الأستاذ سيد قطب. نشر دار الشروق. القاهرة.

ـ **"مجموع فتاوى القرآن الكريم من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر"** محمد بن موسى الشريف.

نشر دار الأندلس الخضراء. جدة. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤/٢٠٠٤.

ـ **"المختار من طبقات الشافعية الكبرى"**: لكاتب هذا الكتاب عفا الله عنه، والطبقات للإمام تاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١).

نشر دار الأندلس الخضراء. جدة. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٩هـ.

ـ **"الموسوعة الفقهية"**: نشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف. الكويت.

ـ **"نزهــة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء"**: التهذيب لكاتب هذا الكتاب عفا الله عنه، والسير للإمام الذهبي رحمه الله تعالى.

نشر دار الأندلس الخضراء. جدة.

ـ **"هذا هو القرآن"**: د. زغلول راغب النجار.

نشر جمعية المحافظة على القرآن الكريم. عمان. الأردن.

ـ **"الوجيز في علوم الكتاب العزيز"**: أ.د محمد خازر المجالي.

نشر جمعية المحافظة على علوم القرآن الكريم. عمان. الأردن. الطبعة الخامسة سنة ١٤٣١/٢٠١٠.

فهرست الموضوعــات

الموضــــــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة